



التراث والعلوم الاسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر
قطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / (أحمد حسين) شعراوي

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد فتوح

مكتبة دار الشعب

٤١٨١ شارع قصر العيني - القاهرة .

ت : ٣٥٥١٥٩٩

ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨٠٠

ص : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدى ١١٥١٦

الدُّعْوَانُ

(في الأدب والنقد)

مؤلفيه

ابراهيم عبدالقادر المازني

عياض محمد العقاد

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواعى للكتابة فى اصوله وفنونه ، اخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الازهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحدرد عليه من الانتكاس لاجتراء الادعاء والفضوليين عليه ، وتسلى الاقلام المفموزة والمآرب المتهمة الى حظيرة . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الامل وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المنهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المنهب فى بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيات الازهان الفتية المتهينة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو ان تكون فيه موفقين الى الافادة

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزاءن طبع اولهما فى يناير ولانبيها فى فبراير سنة ١٩٢١ واميد طبعهما بعد شهرين

مسددين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه -
انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط
بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى
عربى : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من
تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح
الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
ومصرى لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان
لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب
منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا
بحثا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة
اصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر
من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهدنا
اخترنا ان نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ
الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها
بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان
لاعدادها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسينا بهذه
القدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استرخاما لشهرته ولا لمنعة في ادبه عن النقد ، فان ادب شوقي ووصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسبيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملاء الأعلى والملاء الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم رفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وقد لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهباً يعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى أعلى مقاوم السمعة الأدبية واهيئة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشتري السنة السفهاء ويكم افواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزمور في مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوا مقعد
المجد وتسئم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ،
وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل
والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن في الخزانة ، وهل
للناس عقول ؟ ؟

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في تتابع المدح لشوقي ممن
لا يمدح الناس الا ماجورا . فقد علم الخاصة والعامّة شأن تلك
الخرق المنتنة تعنى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم
يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والذم وان
ليس للحشرات الادمية التي تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء
وذوي المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرته تلك الجيف التي
تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض . في بلد
لو لم يكن فيه من هو شر منهم لما تواروا جوعا او تواروا عن العيون .
هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق اصحابها تكيل
المدح جزافا لشوقي في كل عدد من أعدادها ، وهي لا تنتظر حتى
يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، او اثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تمحل
الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا
فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف ، وان لم يكن شعر
حديث ولا قديم فالكرم والاريجية والفضل واللوزعية ، وان ضاقت
ابواب الدعاء والاطراء فقصيدة او كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال
عليه بالثتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأوه .
وهكذا حتى برح الخلفاء وانتهكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر
هذا يوما بعد يوم ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف
يحتال شوقي وزمورته على شهرتهم ومن اى ربح نفخت هذه
الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبراون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة
ويعلمون انها آفة واي آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقييمها

وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى .
فانه يعتدها آلة شرف واحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه في
تقريبها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب عجاجات من
اوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بصر به
يمد يده بالسلام الخفى لاوئك الاوباش في خلوة من خلواته لراها
تقيصة يخزى لها ويود ان تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء
بعزة العرف ولا ترهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية
وشمم افاذ العبقرية . فاما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل
الاعمال ، وان يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون
لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الاعراض
كما يحتفى بمهدبى الارواح وهداة العقول ، وان يؤيد نفاية المجتمع
وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وافراد العصور ، فتلك الهاوية التى
لا يبدر قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟
شعراؤها - الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الاعلى وطلاب الكمال
الاسمى لا يرضون بما دون غاية الفايات مطمحا لعجابهم
وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق اسجانيين
بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزعا
. . . الا انه والله للعسار وشر من العار . ولقد استخف شوقى
بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه ان يسخر
الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى
يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة
سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى اوربا لما قدر ان يمكث
بعدها اسبوعا واحدا فى بيثة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها
ادبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ،
ولا يصد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض
الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى
مم يستنكف في سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقريبا الى طلبته .
والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجرفاء قديم عريق ورد به
كل مورد واذله عما ليس يذهل عنه بصير اريب ، وليس المجال
منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر
هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . اما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم .
نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز
امكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق ادبى في بلاط امير
مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه باصحاب المؤيد واللواء
والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل
عليه بالتقريظ والتهيل وتتحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما
توسعها لنقده غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها
مئات المقالات في نقد الادباء المشهورين كتابا كانوا او شعراء ولا ترى
اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثنى مقالتين او ثلاثا
بدا بها المويلحى نقده في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ،
وهذا ادعى الى الريبة ، وكان في امانة شوقى وموظفين آخرين
بالبلاط هبات محبوسة على اقلام الكتاب والادباء فكان شوقى
يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب
ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغظوا في
المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا اسماءهم واحدا
واحدا واكثرهم احياء يرزقون . اصف الى هؤلاء من يمدحونه
لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمنادات الليلية ، وهم غير
قليل ، ومن اعتادوا ان يرتبوا المواهب على حسب الوظائف
والالقاب ، فمن هؤلاء من كنت تساله ترتيب الشعراء فيقول لك :
اولهم محمود سامى باشا البارودى (لانه باشا عتيق) وثانيهم
اسماعيل صبرى باشا (لانه احدث عهدا بالباشوية والوزارة)
وثالثهم احمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

أبراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) ويلي ذلك خليل أفندي مطران (لأنه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشائخ وهلم جرا كأنما يرتبونهم في ديوان التشريفات لا في ديوان الآداب !!! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس أن يسموا اسم شوقي مشفوعاً بأفخم الألقاب فخارقاً في صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ في كل مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعري ما ضرورة هذا التكرار كله أن كان مفهوماً بداته ؟؟ ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشبهاء العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها - ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فإن كان في الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكرراً ولا تسمع نقداً - مع أن الأغراق في الثناء أحجى أن يفوى بالمنافسة ويكثر من النقاد . ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المقلب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه أن يعلى بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة الأجداد معروفة !! وما أطول عذابه أن ليج به هذا الوسواس !! وإن المحنة لتستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليق أن يضحك ممن يخال أنه يعقم بطن الطبيعة ويسد الأذان ويضيق رجب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلاً على جهله بأطوار النفوس فإن الأذان أشد ما تكون استبعاداً لقبول الدم إذا

شبتت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النعمة . واذا تعود الناس ان يسموا ضربا واحدا من الكلام عن اسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افرطت في محاباته ، فهل يدري شوقى انه يؤجر اذنا به على النيل منه حين يبذل الاجر على المبالغة في مدحه ؟؟ انه لا يدري ولا يبرىء المريض ان يدري بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن اساليبهم المستهجنة ياسا من صلاحها في هذه الايام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريشما تنكشف اسرارهم . وتقول لشوقى ان سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكرهه ان يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بان يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قيظها . وانه ليلد لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل في غرض من الاغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان الدوق والتميز اذا اختلا لم يكن اختلالهما في الادب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شئ ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الأمم تختلف ما تختلف في

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية او بالحرى الفرق في الشعور وفي صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا او صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود او القاصر على القشور ولكنه من اعم أنواع الاصلاح واعمقها . وسنتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا في تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى للقراء أننا نغلف له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالمقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير الماجورين . على أننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارئ ليقتنع بما نقول فأننا لا نسأل أحدا اقتناعه . ومن كان يحتكم براهه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وانا لبادئون : -

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال أن قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فإنها في مستوى أحسن شعره الأول والآخر ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجرا في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبوه الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورتف الكلمات ومهرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة - فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . وإذا اشتهر شاعر بالأجادة فليس للأجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائق وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التي

صاغها اقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من
مألفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار
الأجنبية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ
ومعنى الاقتدار الفنى أو الادبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت
على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء
أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارىء المطلع أن يجد المعنى حتى
يبحث عن وجهته ومحصله . فمزينة شوقى عند هذا الجيل الناشئ
من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المؤلف لنبحث عما
وراءها .

ولهذا طفق يلقي اليهم الفصيحة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة
ذلك الصدى ، وطفق أذكىاء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في
ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت
الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا اصاب شوقى » ؟؟
ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون
منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعززون الاختلاف الى كلال التسيخوخة
وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون
به على الذكرى ، وحديثه الذى يفصبون أنفسهم على استحسانه فلا
يقدرّون - لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الامس هو شوقى
اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق
الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب
في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحذار شعره
في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعبادة التى لم تتغير منذ
قدره للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما
وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمّد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء
الناس غاية فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس
أن القارىء يرتقى في الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر في الأداء
والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام

الشعر ايام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع
وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من
الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم اصحابه ان زاده من القراءة
لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد احس شوقى بالتغير من حوله فآده ان يستدركه واعيته
الزيادة فى سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويج
السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته
فى فريد وقرىء له فى نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال :
تلك قصيدة أردت بها الكلام فى فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

تعود ايها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم
تسمعه من افواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو اخس من بضاعتهم
وابحس من فلسفتهم - كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان
والعكاكيز اذ ينادون فى الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ،
الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا
التقاء » الخ . . . الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على النية غساد	تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقرنا	لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم	غير باقى مآثر وايادى

الخ . . . الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
بونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه احط من ذلك معدنا وأقل
طائلا وافشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو ان يكون من حقائق
التمرينات الابتدائية « كالزيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهلم
جرا . واكثره اتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته

سواء أو بيت حذفه أفضل ، مثل اخباره بأن جر النمش في مركبة
أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما احسب احدا يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة في نفسه هزواً وعبثاً . وذلك
حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق او منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخروية :
« انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق
الآخرة لئلا يضل احدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب
الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظاً ونياما
كانما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها اجل لا ينسام بالمرصاد

ومثل تبيسه من رجعة الموت الى اهله وتخطئته الذين بزعمون
غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجمله غيره كأنها مسألة
خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ
الناس يوماً من بحثها وتقليب وجوها والتنقيب عن اسانيدها
وشواهدا حتى جاء شوقي ففض الخلاف بيئته هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤين

وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه

في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان اهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند
لا يزالون يترجون يوم اوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات غريبنا عن دياره أيوب الى اهله
يوما ناصر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية او لا أيوب ؟؟ فكان
فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقي
فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا أيوب » فانحسم الاشكال وقطعت
جهيزة كل خطيب :

قال ناقد اديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه
قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمنى في البحر » وانه كان أسوأ
منه تعبيرا واقل ظرفا اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك
العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب وتقول : ان توارد
الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة اخرى فان من
يتجشم لاجل الانسانية ان يفرض على هذه المسائل العويصة ويسهر
الليالي في فض مفلقاتها وحل مشكلاتها لتحقيق بان يتجاوز له الناس
عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه ان يابه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقي التي لم يرد في
فلسفة الشحاذين مثلها - فمن هذه الأبيات نبا عجيب فحواه ان في
العالمين نعشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد تنقل عليه موتاها فسيحان من يعلم مراده . والإ فان
كان يعنى ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى
وتجدد فأى شيء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيعة لا تنقل
العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول
اليوم او بعد مائة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير
قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم دمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد
شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الارض ؟؟ ولكننا

نخشى أن لا يكون شوقى قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان
والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ،
فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق
بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها
وأعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى اية لغة لم يكن معناه الا
هكذا : « هذه الفبراء أسقطت من ايدى الملوك قضبا كثيرة ودثرت
ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى » -
فما أشبه الحكماء بالمفرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد
موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

**تطلع الشمس حيث تطلع صباحا
وتنحى لمنجلا حصادا
تلك حمراء في السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجلال**

اليوم لا نخشى بفتة الاجل في كل حين !! فالشمس لا تخرج بدم
قتلاها الا حيث تطلع صباحا (أى حين تطلع حمراء وفي السماء . اما
ان طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا
الا في أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الاوقات لا قتل ولا حصاد
فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا
تصدقوه فان موته باطل . . .

الا أن شعرا يسف الى هذا الحال لجريرة لم يجننها على لغة
العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعها خيرا . جعلوا التشبيه
غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب
صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات
المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا
قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

موقوف فطلبوا له شيها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ،
لانه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه
وان كان لا بد من التشبيه فلنشبه ما يبثه في نفوسنا من حنين أو
وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف
النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم
هو كالخلخال ثم راوا ان لا بد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق
زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشيخوا
بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . وافتن قوم فقالوا هو
كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بنا
يهتك من انواره الحنيدا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا ترجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم
ترجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر
فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الأعمار فإخطأ حتى
التشبيه الحسى لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل
فحسب ، وأما فى سائر الأيام . فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى
حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والغبار الذى على صفحاتها دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول ابى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورعى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترض
للطحن رعى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد ، فعز على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند
هذا يركد العقل ويجم الكلام .
ولم افهم البيتين الآتين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء
.. الخ »

**ليت شعري تعمدنا واصرا
ام اعانا جنسية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمبر الا
قدر رائج بما شاء غدا**

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جنسية
الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ ايريد أن يطبق على الأزهرين المادة
القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟؟ وفيه كذبا وكيف
يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما
للقدر الرائج الغادى ؟؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواح
القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على
شاعر الانس والجن فلعل هذه من أبياته التي صنعها لاخواننا الجن
واختصم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

**لو تركتم لها الزمام لجاءت
وحدها بالشهيد دار الرشاد**

اما دار الرشاد فهي مصر كما ارادت القافية لا كما اراد شوقي
ولا كما اراد التاريخ والأثر . وإما معنى البيت فيقول شوقي ان
نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحده الى مصر !!
فله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجبل مضحكا والتقدیس
زراية : نعش يسعى وحده في البرور والبحار ويجوس خلال المدائن
والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند
قبره ، جادا لا يلوى على شيء قبل بلوغه ، والناس متنحنون عن

طريقه ، تاركه يتهدى لطيته . . افمن هذه الصور ينتزع الشعر
مادة الرثاء والاجلال؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال
شوقى . اراد ان يقول كما قال البحتري :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

في وسعه لسعى اليك المنسبر

فكبا كيرة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعري في قصيدة من غرر شعره
لم ينظم مثلها في لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا في شعر العرب على
خير منها في موضوعها . والمعري رجل تينم هذه الحياة محرابا
واجتواها غابا وصدف عنها سرايا - لابس منها خفايا اسرارها ،
واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غواير آثارها ، وحواضر أطوارها ،
فاذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله
وتلك سبيله . واين شوقى من هذا المقام؟؟ انه رجل ارفع ما اتفق
له من فرح الحياة لذة يباشرها او تباشره واعمق ما هبط الى نفسه
من آلامها اعراضة امير او كبير ، وما يمثل هذا ينظم الشاعر في
فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا تكبر قصيدة المعري تعصبا
للقديم واشارا للعرب على العجم بلقى اليه ها هنا درسا في الشعر
قد ينفعه .

فاعلم ، ايها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر
الاشياء لا من يعددها ويحصى اشكالها والوانها . وان ليست مزية
الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبهه وانما مزيته ان يقول
ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من
القصيد ان يتسابقوا في اشواط البصر والسمع وانما همهم ان
يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعمهم في نفس اخوانه زبده ما رآه
وسمعه وخالصة ما استطابه او كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه
ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله في الاحمرار فما

رُدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ،
ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما
انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان
فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما
تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس الى
نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى
صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه
مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقا الى سماعه واستيعابه لانه يزيد
الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر
ما يضىء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على
الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ،
ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذى
لا يخطيء في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع
الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان
كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات
كما تعود الأغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك
شعر الطبع القوى والحقيقة الجهرية . وهناك ما هو أحقر من
شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة
وما أخال غيره كلاما لشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى
التي اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ،
حادثا متكررا تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة
العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبداية الحكماء وأصحاب الأديان ،
وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حربا سرمدية قائمة
بين قوتين خفيتين ميدانها كل نفس حية وكل ذرة في طباق
الأرضين وأجواز السماوات - هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحقّ والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لا تنى تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نجبا مقضيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادم :

كل بيت للهدم ما تبتنى الور

قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم ان القوتين اللتين هذا اثر نضالهما في الأرض فاعلطان هذا الفعل لا محالة في اشرف كواكب السماء واسماها ، وأضوا عوالم النور واذكاهما .

زحل اشرف الكواكب دارا

من لقاء الوردى على ميماد

ولنار المريخ من حدثان الدهر

مطف وان علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الشمل

حتى تصد في الأفراد

لا يل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين منلاحقين في كل حال .

واللبيب اللبيب من ليس

يفتر بكون مصيره للفساد

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف
على مشهد من ذلك النضال الترمد ، فوق افراح الانسان واحزانه ،
ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح بأك ولا تترنم شاد

وشبيه صوت النعي اذا قيس

بصوت البشير في كل نناد

واذا ذكر متاعب الحياة فكانما يذكرها ليصرفها عنه بنظره
القائط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب

الا من راغب في ازدياد

ان حزنا في ساعة الموت أضعاف

سرور في ساعة الميلاد

اسف غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو اوسع احساس
قدر لبشرى ان يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادري بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر في
رؤيته الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد »
حيث يسوى المعري بين وكر الورقاء ومعامل العظماء وبين منازل
الأرض ودارات السماء . اردت ان تعمم كما عمم ففاتك مغزى
تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى فشوره ، اذ ما علمنا بين
الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما
في حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان
احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطاع

الأخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب .
وأما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسما اسما .
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فإى
فضل فيه لغير الحواس وإى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القوم ؟؟ وتقول فى القبر انه منار المعاد .

وزمام الركاب من كل فج

ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وسهران منها

قدر لا ينام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

ليد ساقه الردى وأظن

النسر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

وإذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيات
المتشابهة فى القصيدتين الفيناك تخطيء فى كل بيت تسرقه من المعرى
أو تاتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .
المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحداً مراراً

ضاحك من تراحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين

فى طويل الأزمان والأباد

وليس أجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب
الدين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتراحم الأضداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عدلا
وقياما على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على
الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقيية كقلوب
الرسل مفسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم احسن صيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه اضعف العباد من اقواهم واطلمهم اشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقتته لغير غرض - اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزير على خط الليالى
وم اقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلافة الجادة التى لا لعب فيها .
وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقييا مفسولا كقلوب الرسل . افليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعرى :

خفف الوطاء ما اظبن اديم
الأرض الا من هذه الأجساد

وانت تقول :

والقيار الذى على صفحتها
دوران الرحي على الأجساد

المعري يسأل :

ابكت تلكم الحمامة ام غنت
على فرع غضننها المياد

وانت تأبى ان لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكي فتقول :

ضاق عن تكلها البكى فتفتنت
رب تكل سمعته من شاد

ثم يروك وانت تبارى المعري مباراة المضحكين ان تزعم
لناجيتك ولنفسك انك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة في
آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر في قصورك من هذه الناحية لانك
مجبر فيه لا مخير . اما الامر الذى لا نعلم لك منه علرا فان ترثى
رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وان
لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان
ذاك لضيق في مضطرب القول او لنقص في بواعث الأسى على الرجل
لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثة لم تنجب من
دعاتها رجلا لقي في حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل
مدد الرناء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك في قضاء حقه وتوفية
قدره لا يكون الا لعجز او كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلاحنة
لا تزال تغلى في نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو ينوى الدم فيأبى بما ليس يفهم منه غير الثناء . واشد من ذلك ايضالا في سقم الذوق وتغلغلا في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست أدري أى ما جن من نظامينا قال هذا البيت في رثاء احدى العيان :

رحمة العود والكمنجا عليها وصلاة الزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بقن الفناء واقدار ذويه - أسلم ذوقا في بيته هذا من شوقى في رثائه لعثمان غالب . لانه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب	في الأرض (ملكة النبات)
امست (بتيجان) عليه	من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغي	بته واقعدت الجهات !!!
في ماتم تلقى الطيب	عة فيه بين النائح
وترى (نجوم الأرض) من	جزع موائد كاسفات

والزهر في أكمامه يبكي بدمع الفساديات
حسبت أقاحى السربي والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمان آ بت بالخدود مخمشات

بل تما لا مرء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء
وبر بوعدہ لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقه والنكات
الانيقة ... لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير
موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر او الثمر
كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . بذكرهما في غضبه ورضاه ،
وفي لهوه وبلواه ، ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته
وكراه - ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل
المدينة الآهله ، وحين يروي عن النعمة السابغة او يتحدث بالمصيبة
القائلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها
بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء
كالاقحوانة ، او المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تنفلق
الرمانة ، او المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، او
قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقى لم
يوف هذا الغرض فحسب بل ارانا ان الازهار لا تجرى على سنن
الجمالة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هي غرس
يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . قلو فجعت البلاد مثلا
بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيّل دمة
أسفا لفرقتة وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والدوق المليح
فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا .
لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمران
الثحاس احتقانا ، ولبن القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من
ألوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم
« جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان
الطبقة الرملية في ناحية كذا تجثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ،

وان الطبقة الجيرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة او تلك ساخت بها الأرض او تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء في شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخبن والسنناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون، وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر النصابة في سهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب وتقيق الضفادح لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام؟؟ هذا ما نسأل الله اللطيف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال فلن نطبق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة في هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الانسان ان الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة « لا اكثر » في ماتم تكون فيه احدى النائحات « فقط » ولا من اللعب ان يصل في كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولا سيما النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول الرجل الفاني منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدى والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غشا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد ان يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يوث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثيه اولئك السدح اللهاء ، الذين يحسبون ان الإخصائيين اذا ماتوا فيجمعوا احدا غير المواد التي

تفرغوا للدرسا وتوقروا على البحث فيها ، والذين اذا اودى احد اولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة اخرى ، او يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية او نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود ان نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي وافتنانه ، والاشادة بخلايقه وبيانه . لولا اننا آثرنا ان لا يفوتنا سؤاله عن انواع من التبات لم يسمها في تلك المناحة التي اقامها - ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والثاء في ذلك الماتم العميم الذي كانت الطبيعة فيه احدي النائح « فقط » ؟؟ انه سكت عن هذه الانواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتي الكبير ام لان من خواص تلك الانواع التي يعلمها الشعراء ويجعلها النباتيون انها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ ام لعلها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟؟ ام هو الصديق في الخير والامانة في التبليغ اوحيا اليه ما قال فلذكر فريقا وسكت عن فريق : راي الرجل الاقاحي باهتة ذابلة على غير عهدا وابصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرا ذمته وادى امانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربا بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبايع وقسوة القلوب ؟؟ تلك اسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ الان ان نرقب اعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الانسان ، تعرفنا لجلائل الانبياء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل ان تبض بها اوتار البرق ويطر بها التجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغي ان تحلوا الامة من موت الاخصائيين من رجالها ، وانها مسئولة ان تضن بأرواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة او تسود فحمة . . .

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العالم الطبيب
فقال مفصلا مقسما :

اما مصاب الطب فيه
فسئل به مالا الاساءة
اودى الحماس بشيخهم
وما بهم في العضلات
ملقى الفيروس المسفرات
عن الفيروس المثيرات

والقارىء يرى انه لم ينبح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجانا له او توبة عنه وانما خاتمه القريحة وخذ له الاختراع .
والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه
الآيات .

طربت لمصرع غالب في الأرض ورسل الحميات
قدمات (غالب) جندها فتمردت بعد (المات)
امست جراثيم الملاريا من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والـ تيفود في كل الجهات
وتألب المكروب والـ سبكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيادل بالدموع الساتلات

فهذه آيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد
للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليل لنا فيم اخطانا المحاكاة
وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتياز »
الأصلى يعرض بنانه ندما على قوات هذه التتمة الصالحة فإنه ليس
أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيا بعد معالجتها واليأس منها .
كذلك يؤبتون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهمون ؟؟ وأما والله
لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب أن يمازح الرجل بكلام
يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا في الدعابة مستهترا
بالمجون متبسطا في الفكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه

النعمة . فليت شعري باى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين
تباعدا القطيين ؟؟ ابذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات
السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه اخفت همسات
العواطف ولا تلتبس عليه اخفى الوانها ؟؟ يقولون ان اذن الموسيقى
المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا ان فطرة الشاعر
ينبى ان تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس
التوشجة المتنوعة لما اخطانا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين
احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان -
أحدهما لا تحسه النفس الا فى ابهج ساعات الحياة: ساعة التبسط
والانشراح ، والثانى انما يخامرها فى اقدس مواقف الموت وأجلها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . لا الا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .
مه ! مه ! ان من السخف لما تعافه الجيلة وتتقزز منه النفس
تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة
الاغبياء بالتحرك لانتقاده اشنع هذا النوع واقلره لانه كالورم الذى
يخيل الى الفر من احمراره ولعانه آتاه ماء الحسن وروثق الصبا
فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا ان يرى الدامل
مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه
من رؤية عاهاتهم ومقاديرهم خليق ان يدرك اشمئزازنا حين ننظر
قنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة
يستحسنون مثل هذا الشعر على غثائته وعواره بل هو لا يروقهم
الا لما فيه من غثاة وعوار - خلائق كل ما نستطيع ان نعلل به هذا
الاعوجاج فى طبائعها واذواقها انها تلفت لفرط ما اخلدت الى الكسل
والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها ان تعنى بها وتكثر
لها ونقلت لشدة ما توالى عليها من عنث الدهر وذل الحوادث والحاح
الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب
شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادي

في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للدوق السليم فأصبح جهد الدوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنت الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الدوق الانساني وحسن استعداده وانما هما تقيض هذا الدوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية - الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الأدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلعغ في دمائهم وهم يسمعون آنيهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب ! ! فاذا تذكرت ذلك فاذا ذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق بالم يرؤه الرايون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الدوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفى هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله احييا المومنين

يا امر الشاعر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع ان الآية التي سيراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث . . . فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو أحق من هذا اللفظ الفارغ الخاوى ؟؟ اليس هذا كايقظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض في المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى

ان بعث العلامة المدرج في اكفانه اغرب واشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيهها شوقى لان موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الأستاذ غالب ان يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا لشيء الا ان يرى المعجزة التي قد رآها وبعد فليذكر شوقى ان الذين يدعوهم بالموميات هم اولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شاعرا لاحد فهو شاعر الموميات ، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى وتحسرت منه بنسات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شامتا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود ان نحصره . . أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!!

ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتممان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله
فاتى باحدى المعجزات
عيسى الشمور اذا مشى
رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفتن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئًا واحدًا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم ان الحياة هى التى تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها الفامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارىء شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكتافها ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى أن سيق اليه ضيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقبيا مزدوجا ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الأقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين – الى أشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتقق ذلك لأحد كائنا من كان في العالمين : وقد تعلم أيها القارىء أن أذكىاء الغربيين وخاصتهم لا يالفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتي أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه – مسوغ لهذا اللقب . فلا بد أن يلمح الشاعر الغربى في تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد أنه يجب

أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي إذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوي عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الأطباء السائرة في الرمل ومن جماعه الأطباء . . » وهو ترجمة قول شوقي :

أئن عنان القلب واسلم به

من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا انه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم ان فصائل الأطباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الأوابد الاقريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه في ذلك فاذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامه الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس في بلادنا طباء مخيفة ولا اليقة - ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامه صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فانشأ نسبة المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلأ فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يعد أن يرتضى الشاعر الغربي هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلأء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لايد ان تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتفنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد احوال غير قليل على تباين الامزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه ايضا ان يحيل التقليد في الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكونن اذن بين قرصين اثنين ليس واحد منهما بجائز في العقول : فاما ان الشرقيين وكبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربي اتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . واما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس اقوى خوالج النفس واعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرئ من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه اخذ يفهم بعض الفهم ويقول مترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين او يتزبون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتراف أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة» .

فيفقر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها اخاخي والغازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها في مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد في التشبيه والفضل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
في نهضات الأمم بالفضل صادقا كان أو مستعارا ، وان يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلأ ، تمهيدا للشئ على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يئن ويتوجع ، في حيث يفخر
ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح
والإهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان
اعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهاننا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم أو
يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الامعدورا .

* * *

وتحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم
بساطتها ان يفهموا على اى وجه تلوح غثائت التقليد لن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فإى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ريقه

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر؟؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميرة على الكلام المتبدل فميزته انه اجمل وابلغ واحسن وضعا للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط في قصيدة واحدة بين ابعده موضوعين عن الانتظام في نسق واحد؟؟ فلو انه كان صادقا في عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاغته بين الملا ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!

* * *

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة. تذكى هواه ، هجيره كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقائها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الامراء والاجواد في اقاصى بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يداونها احيانا بوصف ما تجشموه في سبيل المدوح من فراق الاحبة والم الشوق وطول الشقة و احيانا كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظما والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيا الى المدوح كناية عن الشوق الى لقائه ، وكان الغرض في الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مثوبته، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى في قصائد نظمت في المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يقدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضرة من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطول وافرذ كثيرا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها واشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في يائته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التي اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتحا :

ذى العالى فليعلون من تعالى هكنا هكنا والا فلا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من ارض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المثل الثانى

وكما صنع الشريف واضرايه في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضرة جيل كان احدهم

يقصد الأمير في المدينة وأنه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي انضاهها وحقوق الصبابة التي قضاه . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . ، يجيء شوقي فيتماجن ويتصابي في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال الي جدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصرى بل انه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه اقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه - ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظاميين والشعاريير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضج بها شعر أمير الشعراء؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه: « قد يتثنى كالبائة » « أرداف مرتجة كالكتبان أى كاكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقمار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فاما الموضوع فلا نقول فيه سوى انه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها

الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة وأنها خلو من الأسباب
والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعري فيه
ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى وزاده خصيبا على خصبه
لولا استلام الخلق أوسانه شب فنال الشمس من عجه

وأنه لاليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر
فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره
اخوك لا بطل) .

ولا أصعب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين
منها القارئ مبلغ ما يقعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ،
وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف
على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين اشربة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر
خاصة لأطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها
غرابة المطاردات الجامحة التي تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك
الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأواني . وهى كثيرة لا أظن
زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا
من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو
ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى أن
وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت
به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه
المعجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يروونه
وأنما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا
الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع
ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل
أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شاباً فوق الرأس في
طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وارساته يمنونه
ويكبحونه - لقلب حدره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر
بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم
يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية
كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذي لم يخلق للجمال اجنحة
فكانت تطير فوق بيوتكم النخ النخ » .

اما ان القطار كالطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيهه
لا اصل له ، ولو امكن أن يشبه القطار بالمطر باى قرينة من القرائن
او جامعة من الجوامع كان التلف منه على أرض مصر اكبر من
المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار
والقطر غير التجانس في الحروف . وهكذا تتعلق اشعار المقلدين
بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقى كما قلنا في اول
المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق احدا يتقبله ويحلله المنزلة التي أحلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان المنا به الماما في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها في اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والأدب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما في أوروبا فربما بلغ من تهاون الأدباء بشأنها أن يطبع احدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطا الأبد .

تصدت لجنة الاغاني للحكم في اناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة - وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين اعضاء اللجنة من يعد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الاناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلعا على اناشيد الأمم ، بصيرا بأخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الراى والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين اعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين اعضائها اناسا نيجل ذكاءهم ونكيز فضلهم في علومهم ونراهم اهلا للحكم في أعضل المشكلات التي

تفرغوا لدرسها . بيد ان التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
واذا علمت ان الرجل من الاخصائيين يقضى العمر في فنه باحشا
منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطيء ويبرم اليوم ما نقض
أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم
يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى
انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق ان بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة
وقبلها نشيد شوقى المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم
تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم
سمحوا لاحدهم (الاستاذ عبد الحميد مصطفى بك) ان يجهر في
الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء
الى رفضه ؟؟ بل لا ندرى لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعده
وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا؟؟
امن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع انشودة
واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على افواه الممثلين في إحدى الفرق
يلحنونه ويروضون انفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق
وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في اناشيد مجهولة ،
واسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره ان اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على
اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه اليها بعض
الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد في اصلاحه قبل اذاعته من
قبلها . وذلك ان عضوا عاب قوله :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن ؟؟ الخ الخ

وقال ان البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الأخلاق وتشبيهه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر؟؟
فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الاتيين ومعناها:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال
واقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهرىا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى ان احدهم قال :
انا نجعل مصر وطنا يشترك في حبه ابناءؤه ، واما ملة ذى الجلال
فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال »
وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية؟؟ انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعته . ويظهر ان الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على جالها .
اصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيننا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع فى
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
رضاك مصر الخ » - وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبار - فلم
يقتنعوا . فجعلها أديب فى النسخ الأخيرة « نموت فداك » فافتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين
جاء بهم ليحكموا فى اى الاناشيد اصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا
فى النفس وابتعانا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى
اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليأس فيهجم الى الأمل قدما ،
والعدو فيتضعض قلبه رعبا وغما . . وليكون اللحن صوت الامة
فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء
المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغبنا من ينطق بلسان
النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ،
وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فىهم من يروى بأنفامه عن جلال الحياة
وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي ان تكون الموسيقى ؟؟
لقد علم كل انسان ان ليس فىهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى
ولكنها أصوات اللد والضراعة والحن ينشدها النائم فلا يستيقظ
ويسمعها الصاحى فىنام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا
وعده المعروف ولو أنه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه
يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان بهم الأعضاء ان يفوز هو
بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنادى
بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس ان اللجنة حكمت المولىحى ، وهو رجل تصل اليه
هدايا شوقى . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال
رأيه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه أنه يتقى أن
يرمى بالحسد ان أوما بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان
يتحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الأعضاء فلما أعلن
الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أمورا لا نحب ذكرها . ولهما ذكرناه دليل
على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له
أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتمس فيه أبسط الخصال التى
هى قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب
وموافقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل
نشيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط
أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق
منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب الى الأخبار منه
الى الحماسة . واقواها قوله ا

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه اخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نمانا اوائل علموا الأمم الرقيبا

وليس في هذين البيتين من نشوة العخر ما تهتز له النفوس ،
وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كلز لى بيت سعته
كلذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع
النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة . . » فإى فرق بين قص
المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
ثم عن أعتات المقيد المجهود فخفضت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا
واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت »
سيلت و « تهيأ » « تهيأ » و « شيئا » شيئا : نعوذ بالله من الشى .
وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مقلعه :

بنى مصر مكانكم تهيأ فيها مهدوا الملك هيا
خذوا شمس النهار له حيا ألم تك تاج اولكم هيا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذى يجرى شهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟
أجنى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطنا شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد ان ركب
حمارها بيت واحد سوقى المعنى وهو قوله .

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا باذن حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك او شمالك . .
فكانما كان شوقى على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما أمكنه ،
وكانما لهذا احرز السبق لا لان نشيده كان كما وضفته اللجنة
« اكفاها واوقاها بالفرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق
لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرّد نشيده من
كل شرط يتسق للانشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه فى نشيد امة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر
مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . واما
تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد
وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة
الاولى فى المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا
يحلونها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم
تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتفنى
به امة فيكون مطلعها عنوانا على جلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارئ ان نأخذ على شوقى مبالغته فى قوله : « خدوا
شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه
تأويل .

واما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل
طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى
جميع العصور ان يتها مكالنا . وان لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ

في الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشديد الأركان ، وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه ان يكون فال الأمة وهاتف مستقبليها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الأنفة ، وأجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلى به في المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتبح له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة في بيعته لانه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وان المسيحي لا يدعوا الله به في كنيسته لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لا برسالاته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وان الدعاء القومى لا يكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهى احدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها في صحفة واحدة لطرده من فوره فاعجب لشاعر قوم يفغل حيث لا يفغل الطهارة ويفرق في غفلة الذهن حتى احسبه احيانا يتعمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كى تكون شفاعاة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى

لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري تساعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيدته كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة : وقد قراناها لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد أخف وأهون ، من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أننا لا نرى معنى لزوج الأديان في الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق أن لا نجعل وفاق الأديان مباحة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشيء النادر أو غير المنتظر وهذه الأمم المتحضرة والمتبديه اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أتراها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا أننا لا نقصد الى الافاضة في نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

الخ الخ

نشانا نشاة في المجد اخرى

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيح الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة - نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجترأ اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارئ اننى ما كنت اظن فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تأمر الحكيم والصحافة وسماسة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نفتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

وأينا ان ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي
ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات
الأذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر
بعد شيئاً من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم
منذ نصف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى
على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الأناشيد التي اختارتها
اللجنة فاذا حسينا للمحابة حسابها جاز ان نقول انها حكمت
بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين
النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب
هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة اجنبي
معتزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بني النيل واحفاد الالى
اطعموا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والممالك لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان ترى هذا البلد
من تجاليد الجدود العظماء
لا تظنها ارجل العادي الالذ
وبكم أبناءهم بعض الذمء
تربها التبر المصفى المنتقى
لا الذي يقنى الشحاح الأذنياء
فامنموا كنزكم ان يبذلا
او تعيشوا عمركم عيش عديم

لن تروا في الأرض عنده بدلا
ما لكم كنز سوى هذا الأديم

اذكروا ان عليكم واجيبا
لبنيننا في بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا
فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضى الأرت عصرا ذاهبا

فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه اليهم اكتملا
لم يفيره زمان او خصيم
فحمى مصر تحاماه البلى
وبنوها خير من يحمى الحریم

اذكروا حاضرکم كيف يقام
ليس يفنيننا تلید القدمات
ما التماثيل المهيئات الجسم
وابو الهول رهين الصحراء !
ما المسلات على باب الرجام
والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم تالد من العسلا

في ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العسلا متصلا
كاتساق الدر في العقد النظيم

اذكروا مهما بلغتكم سوددا
انكم لم تبلغوا أوج الكمال
ابعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنال

كم عبدا قرصها التقيدا
فاتقنا في حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكل
خالدا في ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس الى
يوم لا يبقى لها قرص ضريم

اذكروا ان التفانى والفسلاب
في سبيل المثل الأعلى البعيد
نفثا فيكم وانتم من تراب
شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفي النفس من رجس الوجود
فاضرموا في النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما اضرمت النار على
مذبح الرب بمحراب كريم

اذكروا ذلك وامضوا قدما
لا تكن وجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما
يقرع الطبل لجرار لهام
فنسوغ الموت ذودا للحمى
ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن احقاد الالى
اطلموا القجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والمعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألعيب (١)

شكرى صنم ولا كالأصنام . أقت به يد القدر العابثة في ركن
خرب على ساحل اليم - صنم تمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم
« ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على
جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله
والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة
اليها ؟؟ ولم يلتزم في الانسان مالا يتوخى في سواه من وزن واحد
وقافية مطردة ؟؟ .

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى
بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا ثبح
مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة
وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة
باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها غذبات
الأشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الأصال وروعة الأسحار . ولا
يستجيش الحياة في عروقها منظر الكمائم تنفتح عن أنق الأزهار ،
أو الغمام ترسم في صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة
في مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذبوعها وانتشارها بل « وثبها »
من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر
مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

في الصباح البليل وقد انقلب اكمسه الانداء فتساندت رؤوسها
كان سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب ابيض .
كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
هذا الصنم لان باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد اشقى الناس
نفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا ان
تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول
لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا اغنيا
عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين انقاض حياته
يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته .
يقول كلما اعجبه شكله او حاله او اتاره نبذه واهماله « انا اله
الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه
الامواج برش من سخرها وتسك انقابه برعد من ضحكها فما اجله
من اله يتضحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر
اذا كانوا اسلم فطرة من ان يكثرثوا لدعى اخرس لا ينطق ولا يبين
واذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفونا في قبر من
بكمه العجيب . واى بكم اعظم مما اصيب به هذا المنكود الذى
لا يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد ان يكون شاعرا ونبيا فنيا
ورسولا يدين هداية في الأدب ؟

وانت ايها القارئ قد تعلم ان سر النجاح في الادب هو علو
اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وان على من يريد ان يشرح دينا
جديدا « لاطفال » هذا العالم او ان يحدثهم بما احب اسلافهم في
سالف الزمن او بما يلذهم ان يحبوه لو عرفوه ان يذكر انهم لم
يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمراوه وانه لكى يغريهم به ينبغى
له ان يتوخى القوة في العبارة عما يريد فان الناس خليقون ان لا
يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب او شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبي اسحاق الصائبيء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين واصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب في تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون ان يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والمواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا اكبر الاسباب التي افضت الى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الادب لانه لا اسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء ان يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه ان يرى ان يستعمل اللفظة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون - من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لاصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في موضعه من هذا النقد .

ويخيل اليانا ان شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس امره كما هو ظاهر من قوله :

**قد طال نظمي للأشعار مقتنرا (?) والقوم في غفلة عنى وعن شانى
هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصستون بافهام وانهان ؟**

وتعزبه بان الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهرة بالاطمئنان الى حكم الايام في قوله :

**ارمى بشعري في حلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال
مجاراة للمتنبى وتقليدا له في قوله :**

انام ملء جنونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفظن الى سر هذا الخمل
وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم
فقد بحثوا فى شعره على شىء جليل يروع أو حسن يلد ويمتع او
مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة
فلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السخفاء
وضحكة الفارغى القلب والمقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر
الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية
كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارىء الا ان يحس انه اصاب
موضع الداء . اما شكرى الذى اراد ان يقلد هينى والذى زعم ان
العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « ادرج » فى قبرى قتيلا الحب واليباس
فمن يصدق بالشعر ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليل
لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما
غاية ما يرجو فى حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا ان نستوضح
غرضه من ايماءاته الخرساء - وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ
ثورته اذا بلفه هو ان « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه
الذى يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان
ويشتهم ويرميهم بالفباء لانهم لا يستمعون اليه . اليس هو القائل
فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر انى تمر بى الحسان فترتضينى

ولا ادرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز
فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل اقام نفسه فى معرض
تمر به فيه وتجسسه بعيونها واكفها كما يفعل الصبيان باللعبه
والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الاقل اذا كانت هماتهم
ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الفرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس واطلقها من قيود القافية - والوزن احيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا معاتبا الغرام :

انقصسينا ونحسن مقربونا

من التبيان والأدب القسزير

ولعمري ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من البنيان والادب ولكن التقرب منهما شئء وورود شرعتهما شئء آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شئء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الافلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب العول و من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن مآتمه فاء تناض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو المقصود - أن المشنوق سيظل معلقا فى الفضاء الى الأبد أو أن الارض تضيق عن شئء من المآتم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

« واذا صلب احد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

**ولما ضاق بطن الارض عن ان يضم عسلاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات**

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار اللميم
مظهر الحسن . . وليس ادل على جهل وظيفه الشاعر من قرنهم
الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر
لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق
المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به
وادناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول
« كله عبثا لا طائل تحته » او ما جدره ان يكف عن دعواه انه من رجال
المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء
باعترافه . اترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس
بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما
كان شعره من النوع الذي ينعاه على سواه ويعيبهم به . ام ظن انه
يكفى ان يلوك المرء جملا كاللبغاء ليكون في نظر الناس حديثا سائرا
مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذي يعتقد
شكري فينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله
بالبداهة) يخلق الجيل الذي يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له
في بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

بيت الندى فوق الزهور مرققا

كما اتبعث الطل الرقيق ليقطرا

او قوله في فلسفة « تزواج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما

ومهرها الحب لا يفلو لها المهر

من لى بنفس ادى نفسى بها مزجت

كما تمازج في ودياتها الفسدر

والنفس في عيشها شتى منافذها

منها القلوب ومنها السمع والبحر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !
وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للعراء مثلا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا	قذاله لو جزته اقصر
فجز من لنته خصلة	لعلها من خلفه ترفع
فالدهر إن اقبلت ذولمة	لكنه من خلفها اقصر
معلمه مثل طلوع المنى	وحسرة ما خلف المطمع
ولا ترم بالذم صفعاً له	فانما يصلح اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبي	وانما يقصر اذ يقصر
فاطل قفاه بهداد لصل	اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا	فانما يمديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها	وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه	بالرغم من صالغته أروع
واحن له الراس لكى لا ترى	فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لىكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبثورة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبؤدا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة أبيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون ابله لجرى لسانه
بجملة او جمل تلمح فيها اثر العقل . وان كان لم يفكر
في مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب
انتباهات فجائية لعلها من اقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع
صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا في الذهن واضطرابا في جهاز
التفكير لم تنفع في معالجتها كثرة القراءة والاطلاع على خير ما
انتجت العقول . وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان الاطلاع قلما يجدى
اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو او صالح « لهضم »
ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد
بالموجود - كالمعدة الضعيفة لا ينفعها ان تزحمها بالوان الطعام
وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول
من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه
حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه ايضا) بذلك
الشره العقلى الذى يجعله راغبا في ان يفكر كل فكر » ولكن ما به
ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة
كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانىه شكرى ولعله من اسباب
ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة
والردة والجان لما وقع في نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله
ويجعل له أجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وأمثاله أن
الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحفيفة وأن كل كلام ليس
مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون
الا هراء لا محل له في الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان
العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفى العمق
لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء
ولكن مع الوضوح والجلء اذ ايهما احوج الى النور يراق عليه
ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو

أم ما يقوص عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على
العجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .
على أنه من افحش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشده افسادا
للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة
النسور إذا كان طوقه لا يتجاوز ديبب النمال فان العقل الصغير
إذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل
الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكري هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن وأراد أن
يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن أن الاجتهاد يغنى غناء
الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على
خلقه الوداع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال
البسه اياها .

ولما كان السقم في الكلام مرده السقم في الدهن فسنبدأ نقدنا
بالدليل الضمني المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب
ببيان الفساد الذي اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته
واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكري مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك
واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والالاحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر
- خاطر الجنون - وان فكرته مائلة ليجو حياته والخوف منه
منفص عليه كل لذاته وعلاواته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن
أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك
والبيض والمخ واشباه هذه الالوان - وان ذكر هذا اللفظ على مسمع
منه يدخل في روعه أنه هو المعنى به فيمتقع - ولا يخفى أن اتجاه
الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطيء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفي طعامه وشرابه
ويقظته ومنامه وفي أقواله وكتابه من شعر ونثر - أو منظوم
ومنثور على الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده
في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل
الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون
والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما
متماثلتان ، فالعبرى ذهنه مكظوظ بالأراء حافل بالذكريات يتمخض
ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان لا تظن
اليها عقول الاوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع
مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ أو
فتورها أو قابليتها للتنبية والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا
والجنون عبقرية . وقد فطن الأقدمون الى هذه العلاقة ولجوها
وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج
- كما يقول أفلاطون - الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون
المألوف فهذا عقيم نعيد صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي أن يتوهم
أحد أن العبقرية هي الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا اقتل
من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى
وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب في التوازن العقلى
والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير
راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل
عليها وبرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه في شهر واحد حتى
كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه في وقت محدود .
وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه
بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من
الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج
للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى ان يخب به المرض ويوجب

بعقله الداء فلا يستطيع ان يصدح بالشعر ويسخر بالناس !!
وماذا اجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع في بئر
فلا هو « صدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء
عقله .

والى القراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .
حنيني الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون
وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الاسر طرفه وادركه حتى الممات جنون
وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالعقل والحجى

وان لم تجيء فالقلب مجنون فائر
ولكن وجئتى منك جن جنونه لها انا من حبى بحسنتك هاتر

وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالراء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تصتم
لا ينال البرء من نوبتسه او يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معدى عن
لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرىء غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

هسى ان تجسن النفس فيكم جنونونها

فلا ذكرة تصبى ولا فكر يخطر
فان جنسون النفس سسعد وراحة
وان عنساء الحبى ذاك التذكر

فانسلك حتى لست أدري اعاش
على الأرض تسمى أم دفين مفسر
فان يبلغ الحب الجنون فلا تلم
أما كل مجنون على الهجر يعثر
وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان في وسعه أن يطلب
الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب
أحدا منهم خاطر ملح أو وهم جائم ولو أنه سأل طبيبه لعرف منه
أن بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون
لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ،على أنا لا ندري من أين جاءه
ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون إذا بلغ الحب ذلك؟
ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك
معذرون إذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة « صنم الملاحه » :

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وأدركه مس الجنون واطلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلفوك » :

بالله ما تفعل لو بلفوك أنى عرتنى جنة من هواله

وكيف لا يذهب لبي والهوى إذا مضت لى أشهر لا أراك

ومن قصيدة « أنا مجنون بحبك » :

أنا مجنون بحبك فازل غلة صبيك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل يزدري المرء له وقع التهم

أما الحب جنون وجوى ورجاء واجتسرام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نسبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر ايضا . قال من
قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنون كل حي فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكنا ذو الحول مجنون
فتضحك ثم قل ابدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حي فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنت أعد الحسن فيك فطانة وان جنوني في هواك صواب

ومن قصيدة « وحي الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم وهي تبسو لغيرهم كذكاء
وقسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدي غيرهم ولكن
من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس
اني لا احس هذا الجنون . ولكنى احسبه سينكر على الشاعرية
لهذا على الاقل . وقال من قصيدة « مشتري الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى

وانال من احلامه ما اطلب

لجننت جننة قادر متحكم

يرضى على هذا الأتام ويفضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من

قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجل المجنون من حزن

لشد ما نال منك البؤس يا رجل

حتام تنكر حقا غير مشتبه

لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بفضه اياه
راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفائك جنونة
فان رام يوما قتلکم ما تائمسا
فاسقى جنونى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر ان حبيبه عرف ذلك معه وادرك ان جنونه قد يدفعه الى
الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يفري حبيبه بالهجر
والهجر يزيد في جنونه فأتين المخرج من هذه الحلقة والى اى حال
ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه
لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما في الاجزاء الاخرى . ولم
ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان
هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنكم

حتى يخال حديثى لغو نشوان

نشوان ليس له عقل فيسكته

الحب خمري وليس الخمر من شانى

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله

وهو ادمى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا

وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بأن هذا داء
ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصود على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته
إياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب
في الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة
نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن
دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

في كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كانما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر
كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء
النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على
ذلك فإن شكوى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان
الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم
مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما
حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رأت ما لا وجود له في الأذن
سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أي اضطراب
محسوس في القوى المفكرة وأن كان لا شك مع ذلك في أنه اضطراب
محلى في المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب
بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أي اعتقاد المصاب أنه سمع
أصواتا أو أن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن
بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير في
الطرقات وأشباح الأدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى - أعاده الله من شر ذلك - في الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنور البعر فضيا له وتر في القلب فضى النغم

« ما رأيت القمر الا احسست كان نواقيس تطن في اذنى . وان الد الانغام رنة الفضة المجوفة » اه

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية ولنا ان نلاحظ امورا :

اولها - ان البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه مفهوم بدونه

وثانيها - ان ما (يطن) فى اذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره ان الد الانغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » الد « الانغام » وان كانت « اخلص » الأصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم ان الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار - مع التسامح فى عد الرنة نعمة - لا يمكن ان يعد « الد » الانغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهديان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكننا قد اطلنا وان كان التحليل ممتعا مفرحيا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة اخرى وهى ان لشكرى كتابين غير دواوينه احدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بانه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبها روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فاغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى واشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف او نظم ليفوز بالراحة اللازمة له اولا ولان جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن امامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الان وقد رأى كثرتها وتوافرها - وهى كثرة مروعة - يرجع الى اينا ويرضى ما ارتضينا له وما هو خليق ان يحمده الناس منه فلا يحاول ان يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الا بكم الا وهى قادرة على الزامه اليكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجزء الثاني

أدب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا الفطر ولا يعدو جمهور الناس معهم ان يلحظوهم كما يلحظ احدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخدمه او ربة بيته ازيلي هذا واتى عليه بالكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى امره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه وتقيضه . يظهر الدعى فيستولى على الميدان ويخر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى اصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الغند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى ان تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتانى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا ان

يفتحوا للذي تبين اعينهم او ياخذوا لانفسهم بالتى هى املاً لا يديهم
واعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم ان
يكرروا الفاظا لا يعرفون لشيء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام
ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من
اجلهم نتكلف ان تكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل
وتنقض بناء المنكرات والشناعات التى اقامها نفر من الادعياء نشاوا
فى غفلة الزمن فان من المستحيل ان نرجع بهم الى سن التفكير
والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب
الميزان لن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما
فيها لا ليغمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين
النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك
حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يجب ان يستسقى الا من
المصب او ياخذ الا من المعدن مؤثرا الفبينة والهزيمة والغسل على
احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن
طباعها وقلب الفطر الى اضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الامل
ومناطق الرجاء تفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها
ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى
تكون اضوا لها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مفتبطين بعدم
قناعتهم الا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة
مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن
الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات واسوأ المنكرات
ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ
وجعل يتبع بعضها بعضا من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد
صنع ما يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضمن الزمان بمثله ويعبى
الامم مكان تده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى
تنبه اذ ان يتجشم احد منا اقامة الحججة عليه والتدليل مع التبسط

في الايضاح وتحري البساطة في سوق المبادئ وتفصيل الاصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستورا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائة غنيان ؟ افلا يعدرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهي تحسبها ادوات الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذي عليه الادعياء المقلدون في امر الأديب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد في الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذي تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغريبين اذا اطلموا على هذه المنكرات الشنيعة التي تتمخض عنها الطبائع المسوخة والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد في لفة جيد في سواها والادب شيء لا يختص بلفة ولا زمان ولا مكان لان مرده الى اصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الفث غث في كل لفة في اى قالب صببته وسببته وبأى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يقربنا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الامال في صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالي دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الأمر الا من حيث دلالة على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الالقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزقوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا الى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد ان يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحرى بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر روياته وقصصه فى اثر هذا وذاك على اننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخرة قبل الاوان توفية للحقوق وبياننا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يثبته ان اولهما - ولا ندرى ايهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال - ينتهى تسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة
ومناس آدم بكثرة النسل « تفاقم » اللرية . وثانيهما الى اسرة
جوريجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤتل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد أن يزيد
على هذا فى بيان نسبه الا اشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا
تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى متفلوط من مدن الوجه
القبلى فى جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف
والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته
تهدى الى معرفة ما هنالك ولكننا نحسبه خشى أن يضل القارىء
ويختلط عليه الامر فيتوهمه مقدوفا به الينا من المريح - والحق
أن له العذر فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل
ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء
لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته
فنقول وليته. اذ عنى بهذه التفاصيل البديهة كان قد ساق الينا
ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير اثر العوامل الوراثية فى
تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة
يحسبها الرأى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار
والانفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة
من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل فى نظره اطواره . وعفة حتى عن مديده
الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم
يظنه الظان عجزا وضعفا فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث قوة
وشجاعة وإيمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب
باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد
فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم
ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها
كانما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر
فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (١) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم
الذي يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأى البليد الى آخر ما لا
يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .
ولكننا بثنا لتقصيره في ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة
ومبلغ الاكتساب في هذه الفضائل وفي كل هذا الادب الجم الذي
جعله - كما يقول - الكاتب الفريد الذي يحافظ على أسلوبه
البليغ في جميع حالاته وشئونه سواء في ذلك المعانى المطروقة
لكتاب العربية الاولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها
اسلوبا مما يدل على ان السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عاربه
من عواربه .

وليس في أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو
كالسيد الشريف المسبب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما
يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن
انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف آباءهم . وما للقراء
ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت في سماجة
ما كتبت ولقد قرانا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا في تاريخ حياته
يقع في اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى
ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حل الثناء على أجداده . ولقد
جعل وكده أن يشرح لقارئة أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه
ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء
التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا
يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل
عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز نقيصة
المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة
ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب
السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجورجى

المنفلوطى الكفاية فانه اعزه الله لم يألنا كشفا عن آرائه وأخلاقه
وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهو اجس خاطره
ولم يضمن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل
ويشرب ويلهو ويلعب ولاى شىء يطرب ومم يفضب وماذا يمقت
وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه
فى غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها
لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويا لها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه
بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى
ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة
الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا
شجاعة الطيش وانما هى شجاعة . . الطعام !! نعم والموائد الممدودة
والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا
وتمط شفئك وتزوى ما نرى عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل
وأفضحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى
ان يخشى السيد الشريف الحسيب بالنسيب بعد ان يجمع حول
مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض
الوريات القدرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد
من شجاعة الطعام . اترك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم
الفم تستحى العين » ؟ وماذا صنع السيد أكثر من الجرى على
السنن العامية فى كل شىء ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه الالسن
- وهذا هو السر - فاعلمه - فى أنك لا تسمع به فى هذه الوريات
ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على
اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا فى
« تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف القدر
ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض
الاحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة:

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجله كاتب و أدبيا الا اذا كان الادب كله عبثا في عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا المائقين يقول : « ان في أسلوبه حلاوة » ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قلد دمي مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئا لحبك - ذات الوشاح . دم ظل فيسه بلا عاقل
وحبى ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نشرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما في الامر أن صاحبه أراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويفنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة ان تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير في غزل المقلدين والعاشرين لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول او هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين - او الفرس فقد كانوا لا يعرفون الا عربا وعجماء . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المصن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا

يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكانه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شأنه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعدوبته كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نرحا

وقوله :

آه على الرقة في خلودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالتأخرين والعاشرين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا ايهم اعظم تطليقا للعقل واتيانا بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها في مثل قول الشريف الرضى :

انت النعيم لقلبي والعداب له فما امرك في قلبي واحسالك

وقوله من القصيدة عينها :

عندي رسائل شوق لست اذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك ان تذوقها من البيت الاول ذكر المرارة فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي اجدى وانفع في تبين المراد ولكننا لا نحب ان يفهم احد اننا قوم افتتنا بالفرب حتى ذهنا عن محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لا غضاضة في ذلك ما دمنا ندعو الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع في الاطراد والى احساس الشاعر باللذاعة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف انه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا اكثر ولا اقل ولو انه كان قال « أنت النعيم لقلبي والجحيم له . . فما أمرك . . الخ » لأحسنت التنافر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعدبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا قول المسكين شكري يصف جميلا ويبالغ في حسنه :

كانما صلفكم كيما يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فأتك تحس اذ تنتقل من الشطر الاول الى الثانى كانما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكانما صادف ماء البيت انحدارا مباغتاً وكانك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة في العبارة عن مقصوده تحرياً اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشدها
من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما
لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق
وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت اكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من
أخف مراتب الحب وأولها ولا اكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة
ومن اشتهاؤه التفتيل اشتهاؤه لا ينبو مع ذلك في زمام الارادة
فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها
البيت - من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن
المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للغم ومراعاة ذلك
وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع
فقارن قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم
بقصيدة الطفرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه
وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكننا نجتزئ بذكر البيت من
قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطفرائى مجارة له . يقول
الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حنر
على الذى نام عن ليلى ولم اتم
فياخذ الطفرائى ويخرج صاحبيه ان كان لهما وجود :
يا صاحبي اعينسنى على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم اتم
ويقول الشريف يصف ليلته معها :
وامست الريح كالغبرى تجاذبنا
على الكثيب فضول الربط واللمم

بشى بنا الطيب احسانا وآونة

يفيئنا البرق مجتازا على اضم

فيسطر عليه الطفرائى ويصوغهما فى اربعة ابيات مرذولة :
بتنا وبات الصبا وهنا يفازلنا
والليل يكتم سرى والصبا كلف
ياتفحة الريح باتت بين ارحلنا
نهبت طيبا واغرقت الوشاة بنا
ويقول الشريف :

واكنم الصبح عنها وهى غافلة

حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطفرائى فى هذا البيت المتحوس :
وغاب عنا غراب اليبين ليلتنا
فنا ب عنه عصيفير على علم
ويقول الشريف :

يولع العلل بردينا وقد نسمت
فيمسخه الطفرائى هكذا :
واذنتنا بقرب الفجر ناشئة
ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى
فيا بى الا ان يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنشور السخيف :
ورق لى قلبه القاسى ومكننى
مما اريد فلم آثم ولم الم
ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبى والصناب له
فما امرك فى قلبى واحلاك
فلا يرى الطفرائى ان يتركه فى قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى فى الجوى حتى انست به
فهو المرارة يطو طعمها بقمى
فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :
ولا استجد فؤادى فى الزمان هوى
الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطفرائي يأبى له
الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
الخ الخ

وستان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطفرائي لا يسيفها
المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الى جلاء .
ولعل القارئ قد رأى مما أودرنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث
والتكلف ولا مع اضطرار العاطفة ووقدتها .

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطى سواء
في ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب الى
الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى
منه وليس أدنى من ذلك إلا الانوثة وهى أخط وأضر ما يصيب الادب
ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيفونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها أن يشجعوه ويفروه بالكاد
في إبراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى في مقدمة عبراته :

« الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بئس مثلى أن
يمحو شيئا من يؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه العبرات عليهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى . »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطا على المساكين
أمثاله . ولو شاء لقال ان الناس جميعا كذلك ان كان يريد أن يذهب
الى هذا المعنى لان كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المرء في

الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتفى إذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل احد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة - فطنة عميقة مستولية على النفس - أنهم قالوا أن في الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التي تطفى بالليل وتجلل في الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجذب والمحل والابواء والارزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التي تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الي آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس الاولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح في جميع الأديان وان تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما إبليس أن فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لاهدنا هذا وفي اوهام العامة التي تعزو الامراض الي فعل الشياطين وفي خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والفساب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحسه الاطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بفرائزهم وفطرتهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب أن ليس له من عمل في الدنيا الا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجواله في جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقبلها وذيلة أن صاحبها بالغ وغلا في الامر لانه انما يفرق في النزاع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون ابلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استندناء للفاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى اخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه - أو ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ - انقباض عن الناس ووحشة - عفة حتى عن مد يده الى ابويه - كرم في الخلق طالما كان سببا في وصول الاذى اليه - حلم يظنه الظان عجزا وضعفا - صمت طويل بحسبه الناظر هيا - ما رؤى يوما من الأيام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم (١) مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس احقر في نظره من المادحين له ولا اصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو أن الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتقرير المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - ان كان في اخلاقه ماخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من

[١] قال لسنج الشاعر الشاعر الناقد الانسانى . من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث
فليس له عقل يفقده .

الناس والمعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك
وجدانى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه . الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراءة معدومة النظر في التقحم على حياء
الناس بهذه التعوت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية -
فيلانثروبيست - وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون
في غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر
في الاغلب والاعم .

* * *

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما ان تكون مصدقها
فننظر في دلالتها او مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس اندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس
متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وابعد مدى واعمق . هالك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى في الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان
الغرور وكثير من الخصائص البسيطة او المركبة توجد في حالة غير
عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش
ان يكون البخل من اعضاء ما يسميه (فيرى) أسرة الامراض
العصبية . وحب الانسانية - فيلانثروبي - نفسه مما يجرى هذا
المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجنون جبارا في بيته وكان له
ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية ايضا وشرح هذه الحقائق
فيما اسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك ان بعض مراكز المخ -
واحدا او اكثر - تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات او الاجابة عليها
فتسود في حيز الادراك طوائف معينة من الآراء او تصير القلبة
لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم - كما يقول المثل
- لا يصفون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحهم .
وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات ان يخرجوا -

بغير مبرر معقول - عن كل متعهم وكل ما ملكت أيماهم لفائدة
جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالمعمودين أو
المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية
تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبى وعلى العكس
من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب
الراى .»

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها
صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ ان تؤمن
بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه
حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى اعصابهم
أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس اثارا وحبا للانسانية
متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل انوثة يتوخاها فى الكتابة
وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم
واستصغار لاحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبهت بأحد الحكمين فايختر القارىء لهذا الكاتب
اخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد
واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو
شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما احلكها واحساس بالعجز المطلق
والقصور التام . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى
تفشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى
حياته أو فى علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع ان
يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الامور
صنادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب
طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من
يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه أو من

يمنى بالفشل في بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء
اليائسة التي تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجرة ودار
أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تعليل لها من الأحوال التي
تكتنفه هو أو سواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء
والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل
ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب في المفتاح كان
يكون مكسورا أو أن تكون أنبوبته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية
وأما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط في جوفه
أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون
الصدا عطله وأنت في كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن
هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل
أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب
في هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ في عملية الفتح .
أهبنى غضبت . فالامر في هذه الحالة لا يعدو احد فرضين :
أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فاذا كان احساسى مناسباً
لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن
الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ما ليس فيه اساءة وهو
الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما ان تكون
الظواهر الخداعة أو الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد
الى الاساءة وتعهد الايذاء فيثير في نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره
الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا
الى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل في ذاته غير مقصود
به الا الخير كأن يرتب لك خادمك اوراقك في غيابك ولكنك لما لقيت
في يومك من النصب أو لعسر هضم تعباته تخرج عن طورك ويبلغ
غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفي هذه
الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا أصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهذا ناثرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاءة او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل او المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الواجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية او عيب في هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الإدراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى أشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات « قصة البتيم »

وتعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بداناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضعفاء الداهيين مذهب التصنع والافراط في الرقة والاثونة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم منها يابى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريبا بينما هو جالس في مكتبه الذي كانا صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرية اذا به يسمع انينا او حنيئا او صوتا خافتا او توجعا او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه - من العمر ملقى بتوجع على سريرا او حصر فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه امره ويروي له خبره ويكشف له عن مظاهر اتونته ثم يموت الفتى - وهو ما لا بد منه في كل حكايات المنفلوطى فما اعظم شؤمه على ابطاله - فيفسله ويلغه في الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التي كانها لها « زر » في تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتتحدر وتسيل وان كان لم يك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد !!

قباله ما لهذا الحانوتى الندابة وللادب الذى هو حياة الأمم
وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها الى اجل
المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصر ابطاله المخنثين
- ان جاز الجمع بين النعتين - وبموتهم فى شرح الشباب ومبعة العمر
وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض
نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله
وان اخوف ما نخاف على هذه الأمة ان تجد هذه الجرائم ترى
صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبدر فيها
بدور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة
عشرة من عمره اى قبل ان ينضج ويستكمل الرجولة فراجت
واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع
فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن
واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت
اليه باكورة اعمال من الديوع واستفاضة الذكر وان يفريه ذلك
بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل الى ان
مات لا يندم على شىء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من
عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها
من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟؟ لان فرتر
بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من
ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى
اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وان
مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادارك للأمور وان
لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين
الوسط .

فأين تخنت العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقف
واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقوى في
الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس
طالهم ولا نعمهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنابا ومصارعة
منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عائر
وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمطلها
دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن أفلح
ومعذور أن أخفق

جيته - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تناطحها كل موجة
وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط. على الصدمات
والأهوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذي قرت
منده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون
ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى زوايات
جيته إلا ان يخضع للجامة ويستفيد لعنائه والا ان يخرج عن
طبيعته - ان صح هذا التعبير - وينسى جموحه مع المعاني وركضه
في حلبة متوعرة من الأداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق
المتحدر في سهل دمث من الأرض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تعليه الحياة المتدفقة وصحة
الإدراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه
العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لا تعرف
لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة من آرية
وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها
أن قتي في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا
فكفله عمه وأكرمه وأحسن اليه إحسانه الى ابنته التي كانت في
مثل عمر الفتى فشبا عشيري صفاء وخذني مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم - اما كما كان هو له أيا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لانه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فأتسل من البيت ليلا وآثر ان يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم ان خادمته فى بيت عمه اهدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه ان ياتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنسه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والان فلنرجع اليها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملاسمة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسى ان يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لان الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوؤ الأجمال الى التفصيل ، ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل ام ولم تكن تعلم ان الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك
ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا اعلم هل كان ما كت اضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء
او حب وغراما ، ولكنى اعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا امل او رجاء
فما قلت لها يوما اننى احبها لانى كنت اضمن بها وهى ابنة عمى ورفيقة
صباى ان اكون اول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت
فى نفسى يوما من الايام ان اصل اسباب حياتى باسباب حياتها -
ولا حاولت فى ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع فى مثله
المحبوب ولا فكرت يوما ان استشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها
لا علم اى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك او
منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على ارادة ابويها .

فما ذنب امراة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم او يقدر او
يتسقط او يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره
ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان
لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه
بخبيثة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امراة عمه ان تزوج ابنتها شىء يستدعى منه
ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذم والانسلال تحت
الدجى طلبها اليه ان يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه
على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة ان يربها شىء من
وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس
طبيعى . ولا شك ان فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير
بعد ليلة او ليلتين كان خليقا ان يجعله سيفها . فلماذا انسل واثر
الاستشراء والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من
وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! اليس الواضح البين
انه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزا
ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله
بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذي لا يعتا
يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لانهذا المسكين الذي
لا يدري اهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته ام حب الرجل للمرأة .
ولا يقدر في نفسه ان يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول
ان يعرف ما عندها له او يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام
لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم
ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذرى الذي
لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس اعلى منه للحياة - واللين
الذائب والنحول والضحى من دلائل سمو النفس - والانقياد للمرأة
كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات
حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات
الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية
والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول
والاصفرار والاطراق وتكت الارض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه
ماقل والنظرات التاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل
ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الاصابع
للأشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامة والتحيات
الطيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لا يطمعون على
الحياة الا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات
ولا يفكرون او يحسون او يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة
في ذلك فان من لا تؤهله تجاربه او معارفه لتصحيح خطأ الروايات
لا يسعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته
ويتخذ اشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهى نتيجة يعلمها من له
اقل المام بعلم النفس وبتأثير الايحاء لا سيما في الضعفاء والشبان
والنساء ومرضى الاعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة انى
اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه
وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان
يكون على رأس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك
لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب
فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب
بتنبيهها مركز التوليد قبل الأوان وقبل ان يكون الباعث على الحب
هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ ما دام يقدر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحمه عليه وأذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس ادل منه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقى ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعله بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وإن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس الى آخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فإن فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب اسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فإن الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ ، وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا . . . أجل جرسه

وهدهاء ، والا لكان ينبغي ان لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك ان الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد ان يكون وراءها شيء ، وان المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ وان كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى ان راح يحسب ان تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القارئ ان يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو افقار لغناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم اغنى في باب الأدب من ان يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لان اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا أداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن اين له ان ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطى وكلها لا ضرورة اليها ولا داعى الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

- ١ - وقلت لابد ان يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معدبة تدوب بين اضلاعه (ذوبا) .
- ٢ - فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

- ٣ - ثم لم أزل أراه أو منظوريا على نفسه في فراشه يئن
(أنين) الوالهة التكلى .
- ٤ - واتمنى لو استطعت أن ادخله (مداخلة) الصديق
الصديقة .
- ٥ - وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجذ .
- ٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجاً) شديداً .
- ٧ - فشعرت برأسه يلتهب (التهاباً) .
- ٨ - وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه يذنه (موجاً) -
يصف نحوه .
- ٩ - فاستفاق قليلاً ونظر الى (نظرة) عذبة .
- ١٠ - فتنهد طويلاً ونظر الى (نظرة) دامعة .
- ١١ - أصبحت معنياً بأمرك (عنايتك) بنفسك .
- ١٢ - فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .
- ١٣ - ١٥ - فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم
واحد فأنست بها (أنس) الاخ باخته وأحببتها (حباً)
شديداً .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقداً) لا يحله الا ريب
المنون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .
- ١٨ - ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر احد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم
له مكاناً ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرفته -
(دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .
- ٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .
- ٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقتة (سحقا) .
- ٢٥ - ٢٦ - اشعر براسى يحترق (احترافا) وبقلبى يذوب (ذوبا) .
- ٢٧ - تم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشبان واحد فى كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا ملتاعا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا » وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء او لا يعلم ان هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لان الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه ان يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع ان يتحرى الدقة اذ كان لا يدري اى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النابعة عن المعنى المراد فهو من اجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الالفاظ بلا حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى ذاكرته وبرنين الأصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك امر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة إذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء في المدلول إلا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعني على التحقيق وأي مدلولاتها المتفاوتة يقصد إليه ويريد منها في فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور إجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن العول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ إبانيتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماسة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن وهنا أصلاً يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق إليه وإن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورته ولا يمطيك شيئاً إلا بعد أن يتألف مع سواه ويجرى كل إلى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مسأغ في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجي لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، وإلا فإن أحسننا لا يعجزه أن يعمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وإنما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت ان تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رأيت يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والى بعد ذلك الفاظه من اى حالى شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك ان تقرا له هذا التركيب :
« فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الأرض أحد أذل منى ولا أشقى » - « ومارثى مثل يومها يوم كان أكبر باكية وباكيا » او هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه » - « وما هى الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فائما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وقلها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنى فى كتابته وملق مستحيل التلقيات ، وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفه والاحساس المصطنع وبالغلو والتاكيد فى صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا ان ننظر كيف يسوق القصة اى فى الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين ان ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد ان نلقى على هذه القردة درسا فيما يفيد صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر .. وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ما ضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الأمة التى تكبت بهم على

قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ، ولكننا ما قصدنا قط الى امالتهم
عياهم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصر من له طبع من
المنشئ اذا قدحته وري وهدى من له قلب اذا اريته راى .

ونمهد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما
لا يدركون الشيء او يصددهم فنقول ان ههنا في ناحية من الطريق
شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين
والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى اى هو تابع
له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى
يديه وتقيس النصب الذى ينبغى ان يعاينه الى القدرة اللازمة التى
لا ثواتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفته وتصوره وانث
ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا
او امره ونواهييه - هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب
المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عدم التلاؤم
والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذه فى مشيته وتشاوبه واستناده
الى الجدران وذهول نظرتة او حواراه مع الباعة وتأتيه الى غايته
وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته او تواريه فى الدروب ووراء
العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره
صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين
متباينتين اذ كنت قد نظرت الى امره وحاله نظرتين مختلفتين كنت
فى الاولى جادا وفى الاخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين
معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالفرض منها فوجهة النظر الى
الموضوع والطريقة التى تتحراها لغايتك هى ما نسميه اسلوب
التناول ولا شبهة فى ان المرء ينظر الى الامور من جهات معينة - من
ناحية الجد او الهزل او المألوفية او الشدوذ او الجلال او الحقارة
وليس يعنينا من اى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما
فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ
التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصى لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب ادق النظر واشق التمييز واصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الادميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه او قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم يقصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وامثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الادب لا شأن له بهذا الاهمال او الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحية للحياة . وهي هي ميزانها ابدا واحدا لرفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان وادهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا ان تعدوه كاتباً ادبياً فلا تسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامى لنعرف من اى معدن هو . وانتم بعد خلقاء ان ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك محيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيفات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوامنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطة زاخر العباب يضطرب بنا متنه في عشي ليايلنا المتجاوبة بصيحات التسك والظما الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غير زمن لم تذهب في اثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه بحسبون ان الادب والفلسفة - او النظر المخلص الصحيح ان شئت - لا يتفقان وان الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون ادبياً وان الاديب لا يكون سعفا ورائدا وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب أن يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشادى بعلاقة الطبيعة بنفس الادمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمرىغ وراء السماء سماء وبعد الابد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى - وما أهول هذا الانحدار - فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا الباد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكننا وطنا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حدائة العهد بالادب الحى .

يحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وانى له ان يفهم هذا - انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل ام قصر ونحيل ام بدين وهل فى يده كتاب ام عصا ونائم هو ام جالس؟! وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والفاطمة المعقدة لا طواهر الاشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخواج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير فى اجتنائه وتحاشيه وليذكر القارىء ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدسى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المظلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مظلة على بعض نوافذ فرفته فارى امامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب او يكتب فى دفتر او يستظهر قطعة او يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف راي شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟
ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قره من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد اكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما لم به من تعب المدرس والام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه . »

وهى لاتفيد ولا يمكن ان تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى انه احس انه موشك ان يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاقت وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدمة الملتمة لا يسمح بان يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرج منه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير ان يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارىء هل قنعت ام نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافي : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجا فامرت الخادم أن ياتينى بشراب كان عندى من اشربة الحمى
فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا
محدثته اياك لم تره وبالجسم لو توكات عليه لانهدم فاما القميص
من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع أن يسمعه أحد الا في
مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتاح صاحبكم
المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انقص على القارئ كتابنا بكثرة ما أورد من
هذه التليفقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضا
— دعا المنفلوطى الطبيب فجلس المريض وهمس في أذنه أن العليل
مشرف على الخطر — ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث
بعد أن جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى
الأجر وأحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكى عليه اخرى حتى انبثق نور
الفجر » .

والعادة ان الأشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية)
يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره أن يعطيه
الدواء بعد كل . . . بكاء !

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات
له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم
تخالطه زفرة ولم تمازحه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا
عليهما « ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى
الناس يحادثهم حتى كأن المرزوء سواه .

وبعد أن استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب
المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم انه فى سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رانى فقال انت هنا ؟
قلت نعم : أرجو أن تكون احسن حالا من ذى قبل . قال أرجو أن
أكون كذلك . قلت : هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت وما
مقامك وحدك فى هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت
من أهليه وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعنى) أوهما باطنا وهل لك
أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو ميت لا محالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملأ
أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت !
وما أخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المجتضرين ؟ وما أحق
أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقى فى الميزان

٢

عرضنا (شوقى) فى الميزان لأول مرة فارتجج به ارتجاجا عنيفا وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسته : « هبونى لست بالشاعر اليس لى فخر آخر ادل به ؟؟ »

تقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الاثر ما كنا نقدره لاربعة اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه - اسرعوا الى اقتنائه حتى نفذت نسخه فى اسبوع او اقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المترنة والقطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورايهم فيه جميل . ومنهم اذكىاء الشبان الدارسون او السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايخون بل المهملون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والمنت وربما عز على بعضهم ان
يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف
فهو يتلمس العاذير ويدرب لسانه على التغير ، وفي هؤلاء أمل
لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة
الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة
ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة
الحصباء ما يشق تسويته او يعسر عند اليأس منه نبذه . واما
التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره
ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم توجه اليهم
خطابا . وهما فريقى المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما
يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويفرمون بالشعر
كما يفرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات او بتربية الديكة
ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن
اظرف ما يروى عن احدهم انه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى
لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى اقام لها الازهار
والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن
- سان الله لشوقى اعجابه - اننا انما انكرنا سكوته عن القطن
واردنا منه ان يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا)
وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم
شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما
رأينا احرا من سخطهم ولا اكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلة ، وهذه
آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب ان نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن
القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . اول
الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا او هن قصائد شوقى

وأكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحدانة
ليما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن
أجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة - كما قلنا فى الجزء
الأول - هى أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان
فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول
باننا-انما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقى وذوقه وروح
قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه
العجلة والتانى ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق
والاعوجاج فى المنهج فاختلف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب
لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلمهم بعد الاطلاع على
هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

اما ثانى الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه
النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه
بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما
احوج البرهان فى هذه الى الشدة وما اقل ما يفنى فيه اللين
والهواة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !!
كاننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف
عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة
لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! واى حق على الناس ان لا
يعرف لتفسه ولا للناس حقا؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى انفسنا قدرا
يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه فى
توطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء
التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يفضب لكرامة الفكر تداس هوانا
ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليفضب علينا ما شاء فانه
لا يعرف كيف يفضب .

وكاننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا تؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الأول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الأدب، وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والأوان . وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص - لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاعت شركة جناتوزان أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التى تجهزها لمداواة الأعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذى قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله - ويدعى المستر هيوز - وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الأشياء ان يتخيل الانسان أمرا أشد ايداء لنفس المؤلف من ابتدال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعمهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه اقل مسحة من الكرامة الأدبية » .

قالوا : فلما نطق القاضى بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وعندى

ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتفريم الشركة أربعين شلنا تعويضا للاهانة التي لحقتها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكها بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكها .

لمثل ذلك الابتدال يفضب اديب الفريين ويقول محاميهم انه اشد ما يتخيل ايداء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف ان يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح ان التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « أسرى مروءة الدنى وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولفزا مفلقا ، لان هذا الذي أنف كبلنج ان يصنع بشعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقي بشعره مختارا وتعمد ان يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا بروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بل فقد قال اذامه الله للدكاكين والائم والأفراح والسهرات :

له ريشة صادق من ريشة تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها حسنا وفكتها من التقييد

(١) جريدة الديلى كرنكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

وتهدى لحسن الخط كل مقصر	وتهدى في الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب انظروا بها	من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس ان خطرت به	من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيي مؤنسا بصريها	وتقول ايام ابن مقلة عودى
لو لم يكن في الامر الا انها	مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفي هذه الابيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية
دراجة ابانت ان اخيلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات
الدالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة
كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في
قوارع الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدل على ريشة عربية
بانها « حسنت الكتابة في المشارق كلها » انما يرشف من البحر
الذي تعرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة في العالم كله »
و « ولم يكن في الامر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب
الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان
الباعة لا يفلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضون الريشة
ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!
وبعد فان المرء ليزدري العقل الانسانى نفسه ان قيل ان هؤلاء
الصعاليك الفكرين الذين تفوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى
مزاياه وحملة امانته في الارض . فالادباء في الامم هم عنوان حياتها
الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى
الطبيعة ومعانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور
السماوى الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه
كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة
وطبققتها الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة اميرا
كان او مامورا تفخر الامة الحية بأنه صورة ما في نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما في رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول
بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود ، وتراث مقسم بين
إبتاء آدم . وان المرء ليزهى بأدميته حين يلغى بنفسه في عمار الآداب
الفريية ، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهايبها
ومتجهاتها وتجاوب اصداثها وأصواتها - أبواب للكتابة متنوعة ،
ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس
ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر في كل
شية من شياتها ، محسوسة في كل حطره من خطراتها ، متكررة
متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية
متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس
تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .
فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائزة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الأدب الذي يدعيه أولئك الاميون
العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة
المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على
رقمته ولعلمه وذاك مدبرا الى ربربه وسربيه ، ومادحا وهاجيا
ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول
خاوية واخيلة في التراب ثاوية . او كأنما هي الانتقال الى القرار
هاوية . فصدق احدى اتنتين : اما أن ادبا تسمعه من هؤلاء اشرف
ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى اسمى معارج الانسانية . او
انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلتها نباغة
الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء نفر بعد
اليوم ادباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة
فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من
اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات
أرزاقهم بعرض لعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « الكلتور المصرى »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وأنشاد الأشعار بأيسر مما يساق
المولوية لتشجيع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها أحدى
الحواجز التى تصونها أن تترد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها
من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو
طائفة ، وانها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب
حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين
والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة؟؟ إلا أن العصا فى
يد الأكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه
تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف
بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد
وجب بل أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكانما شاء القدر أن يبدد حبال شوقى وطلاسمه كلها فى
بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر على
القوم يتنون عليه فيفترون بتشجيعهم له ويروعهم اعجابهم به
ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغاني
فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء
العلية اذا اعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسنا . وانها ان هى
إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة الإدارة

شمزت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما
يصنع المشعوذ الهنذى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب
فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملاكي يشاركها في الابتهاج به فيللمهارة!! ولكنها لسوء حظ شوقي
كانت تنقصها خفة اليد!!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة
مما اظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء
بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول .

فالقراء يذكرون ان اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين -
وهم اعضاؤها الاخصائيون - اختارت نشيد شوقي واعلنت اسباب
اختيارها له في منشورها وهي انها « انتهت في مناقشتها الى انه
اكفياها واوفاهها بالفرض واجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق
لنشيد قومي » وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان
عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في
الصحف يتقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد
القومية . ثم انهم يذكرون ان فريقا من اعضاء نادي الموسيقى من
الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الاستاذ
انما يتكلم براهيه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين
مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية
« النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار
الصادر عن روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي امامهم واقبلوا
يسألونها وهي محتدمة تصفيقا: ما هذا الذي تصفون له ؟؟ نعم لم
يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون
وراه . وكثر اللفظ بتحيزها واجترا الموسيقيون على الافضاء
يارائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه اول

المنهزمين . فقد اخذ يزعم انه انما نظمه ليفنيه جماعة عكاشة في مسرحهم . . كأنما النشيد مشى بقدمين الى ديوان لجنة الاغاني !! وخشيت اللجنة ان يكون حكم الامة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون ييلفون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومي !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطتم !! اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تفنيها على المعازف والآلات ؟ وآين ذهبت تلك المزايا التي اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغاني بيدها وانكشف طلسم كان من !بهر طلاسـم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الاسماء الخلافة وهم الالقاب الجذابة . وعندنا ان لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغاني ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤب اليه بعد ان تكون قد ابطلت وهم العامة فى امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة نفسها على هذه اللجنة فقد شورت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لظهار قيمة التحييد والاطراء من ذوى الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهرة قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى فى الحفلة التى اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى اقبل المدعوون من علماء وكبراء وادباء واعيان فازدحم بهم المكان ثم اقبل نائب الامير محمد

بك جلي باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك
فرق الكشافة للكشاف الاعظم ثم ابدات الحفلة بالذكر الحكيم
فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض
طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الامر واعتذر عن سموه بكلمات
وفيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاهها بين الاعجاب والتصفيق
الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الامر ساعة ذهبية اثرية ثمينة
وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة
جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف
حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى
فيها على سمو الامر لتعزيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من
اصبعه خاتما من الماس ووضعها في اصبع الاستاذ القصرى وقدم له
سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر
خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عيش لوحة كتب
عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية
انشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم واقبل المدعوون
وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتنهئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارئ وليتصور اسم
شوقى مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل
منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وتم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون
كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس
مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في
انصافها وفي الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية
التي تنهض اليه لولا أنها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة
المثلثى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية
كوتكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثنى عشر ألف فرنك
للسابق من الادباء في باب من ابواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة

المنصرمة فنى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
افيدرى القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم
الفرنسى يسأل عن شأنه فاذا المسئول والسائل فى العلم به سواء .
راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل
اشارة اليه او الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه
بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد
فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات
العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١)
فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك
كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونكل فى باريس « وكان
بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا
تاما وان كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص
.. ولم يكن احد من أعضاء المجمع يعرفه الا أن احدهم قرأ قصته
القدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادياب
النابيين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع
دونهم بمشعل النصر » .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب .
تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحى كل ملكة سالحة
للحياة وهم لا ياتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف
لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا
تحسن ان تجامل الا بان ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم
والافتقار ان فى ذلك لموعظة .

* * *

(١) جريدة الديلى كرونكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

· وخاصة القول اننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفتىء الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسال الله ان يخفف سخطهم . واما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة وكان اقلهم موافقة من أرجا الحكم لنفسه حتى برى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الأولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته :
« خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وامثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الاخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره واليوم يخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟
انتقده ؟ قلت وماذا عساي ان انتقد ان لم انتقد الهراء والزيف
والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله
فما كنت اظنها آية لاحد من العالمين وما حسبتها الا زلة اسقطته
فيها « مغالبة الشجون لخاطره » او داهية خانه فيها امكانه الذى
ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعنى فيك القريض وخانى امكانى

وما دهاه الا العجز والفهاة والهرج . دهته اولا فاجبل
وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى اربعين يوما ثم زاد كثيرا من
اياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من
التلفيق والعقم والزغل المموه . فاما وقد علمت انها الآيه التى بها
تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعائه
فبايته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه
ونفضح مطاعنه ، وانها لآيه ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل
ولكنها آيه السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى
من ذلك واضعف ، واضأل فى الضئولة واسخف ، اراحه الله من
شعره بما اراح من اقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان
كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه في وصب وشقاء . ولقد فات اصحابنا سمسارة شوقى
ان خلافتنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق
فتتقارب كلما اجاد شاعرهم في رايهم او خيب آمالهم واخلف
ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه
وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا
وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور
كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان ابعد عن حالة الصحو والصواب
وكالاعجمى كلما اتمعن في فصاحته وبيانه استفلق على مسامع
الاعراب . وهذا هو الواقع في ما اخذناه وناخذه على شعر شوقى
وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته هذه التي راينا بعض
المفتونين يجلبها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهى لو يفقه من
القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي
يبحث عنها لابرار ماخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب
فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير
رايه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقى واضرابه فيها عديدة
مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور
وأجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة
والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هى التي
صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس
الانسانية في اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى
عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن
نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الأنفة أثر ظاهر في هذه
القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد الا مزويا أو دقيقا عن
فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من
نقائص الشعر ما لا يمنع ان يامح له رواء معجب يستهوى البسطاء
بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيفة فانها في القالب اجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة
غالية .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات
متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه
بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت الفصائد ذات الأوزان والقوافي
المتشابهة أكبر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشبيه في الأعراب
وأحرف القافية وحدة معنوية جاز أذن أن ننقل البيت من قصيدة
إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز .
ولتوفية البيان نقول أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل
فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه
والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع
أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة
الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته
ولا يغنى عنه غيره في موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم
عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه
مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون
الهمج المتأبدن فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق
عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا إلا حيث تنزل بهم عمالة
الوحشية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة
ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها
فاعلم أنه الفاظ لا تنطوي على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة
بل هو كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء
الحلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف
وأجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين
أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب

صالحة لان تحل في اى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفه غير وظيفه النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين اتمه فى اشرف المخلوقات واحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تمشى فى اجناس الناس كما تمشى فى انواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولسها البحترى فى هجوه لعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحي متشابهو الالوان
لو يسمعون باكلة او شربة بعمان اصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الدهن ونزعته . وتقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الادب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمثرب وتمائلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت ان تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من ان الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورايتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون افخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشتوى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على ففدان الخاطر المؤلف بين آبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السنيقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلده متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

او كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة
ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة
واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز
كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه في قمته ،
لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه
ومزاياه .

وهاه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى
كامل نسأل من يشاء ان يضعها على أي وضع فهل يراها تعود الا
كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا أحقاف خلت من
هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية
ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريراً لذلك نأتى هنا على
القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يتعد جد
الابتعاد عن الترتيب الأول ليقراها القارئ المرتاب ويلمس الفرق
بين ما يصح ان يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح
لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على
فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو
لا تضيع عبثاً - قال شوقي أصلحه الله :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والسداني
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
- ٣ لمانعيتالي الحجازمشىالاسى في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضببان
- ٥ لم تالها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
- ٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحجان

- ٨ جار التراب وانت اكبرم راحل
 ماذا لقيت من الوجود الفانى
- ٩ ابكى صباك ولا عاتب من جنى هذا عليه كرامة للجاني
- ١٠ يتساءلون ابالسسلال قضيت ام
 بالقلب ام هل مت بالسسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجبا
 والجند والاقدام والمرفان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباني
- ١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
- ١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
- ١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومضلل يجرى بغير عنان
- ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
- ١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
 ماتوا على دين ولا ايمان
- ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيقة
 جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقصران
- ٢٠ دقائق قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان
- ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
 فالذكر للانسان عمر ثان
- ٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
- ٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المضيف لوثر السلوان
- ٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
- ٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
- ٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
- ٢٧ يظاهر الغدوات والروحات والخطرات والأسرار والاعلان

- ٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
- ٢٩ يدعو الى العلم الشريف عنده ان العلوم دعائم العمران
- ٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
- ٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان
- ٣٢ يزجون نهشك في السناء وفي السنن
- فكانهما في نعشك القومران
- ٣٣ وكانه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكى وبين حنان
- ٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
- ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصنوق يلتقيان
- ٣٦ سُقت لمنظرك الجيوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوان
- ٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
- ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
- ٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلنا دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
- ٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلو
كفن لبست احاسن الاكفان
- ٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
لم تات بعد رثيت في القرآن
- ٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محقق
والداء ملء معالم الجثمان
- ٤٤ يبغى ويطفى والطبيب مضال
قنط وساعات الرحيم سر، دران

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تصالح كتمه وتماني
- ٤٦ تملى وتكتب والمشافل جملة
ويداك في القسطاس ترتجفان
- ٤٧ فهششت لي حتى كانك عاندي
وانا الذي همد السقام كياني
- ٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائمها
ما للمنسون بدكهن يدان
- ٥٠ وجعلت تسالني الرثاء فهاكه من ادعوى وسرايري وجناني
٥١ لولا مغالبة الشجون لحاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
- ٥٢ وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٣ قد كنت تهتف في الوري بقصائدي
وتجبل فوق النسيرات مكاني
- ٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقنني
فيك القريض وخانني امكاني
- ٥٥ هون عليك فلا شسمات بهيت
ان المنيمة غاية الانسان
- ٥٦ من للحسود بهيئة بلفتها
عزت على كسرى انوشروان
- ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشساني
- ٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هكذا ترى مصر فنم بامان

- ٥٩ اخلع على مصر شـبـابك عاليا
والبس شـبـاب الحور والولدان
- ٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدى
مجدا تتيه به على البلدان
- ٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان
- ٦٢ علمت شبان المدائن والقري
كيف الحياة تكون في الشـبـان
- ٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظامك حان
- ٦٤ اقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

* * *

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأبى أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن
تسمى أربعة وستين بيتا منظومة فى كل شىء أو فى لا شىء . فاعتبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة
وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها
ربحت وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما - قال شوقى أيضا :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان
قاصصيهما فى ماتم والسداتى
- ١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى
ولرب حى ميت الوجـدان
- ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان
- ٦٤ اقسمت انك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

- ٢٧ يا طاهر القدوات والروحات والخط
 سرات والاسرار والاعلان
 ٩ ابكى صعباك ولا اعاتب من جنى
 هنا عليك كرامة للجسانى
 ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقران
 ٥٦ من للحسود بميتة بلغتها
 عزت على كسبرى انوشروان
 ٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالدمع الهتون غوان
 ٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
 ان المنية غاية الانسان
 ٢٠ دقات قلب المرء قائمة له
 ان الحياة دقائق وثوان
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
 هل فيه آمال لنا وامانى
 ٦٠ فلفل مصرى من شبابك ترتدى
 مجدا تتيه به على البلدان
 ٤٢ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والناء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبنى ويطفى والطبيب مضلل
 قنط وساعات الرجيل دوان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
 ما للمنون بدكهن يمدان
 ٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
 بعض المضاء تحرك الهرمان
 ٤٦ تملى وتكتب والمشاعل جمة
 ويداك فى القرطاس ترتجفان

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تصالج كتمه وتعاني
- ٤٧ فهششت لي حتى كأنك عائدي
وانا الذي هد السقام كياني
- ٥٠ وجعلت تسبالي الرثاء فهاكه
من أدمعي وسرايري وجنساني
- ٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقني
فيك القريض وخانني امكاني
- ٥٢ وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٢ قد كنت تهتف في الوري بقصائدي
وتجمل فوق النيرات مكاني
- ٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- * * *
- ٥٨ يا صلب مصر ويا شهيد غرامها
هنا ثرى مصر فنم بامان
- ٦٢ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان
- ٢٤ في ذمة الله الكريم وبسره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلی
كفن لبست احاسن الاكفان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

- ٤٢ و لو ان اوطانا تصور هيكلًا
دفنوك بين جوانح الأوطان
- ٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقیة
لم تات بعد رثیت فی القرآن
- ٢ یا خادم الاسلام اجر مجاهد
فی الله من خلد ومن رضوان
- ٦ یا لیت مكة والمدینة فازتا
فی الحفلین بصوتك الرنان
- ٧ لیری الأواخر یومذاك ویسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحجان
- ٣ لا نعیث الی الحجاز مشی الی
فی الزائرین وروع الصرمان
- ٤ السكة الكبرى حیل رباهما
منكوسة الاعلام والقضبان
- * * *
- ٨ جار التراب وانت اكرم راحل
ماذا لقیتم من الوجسود الفانی
- ٥٧ عوفیت من حرب الحیاة وحربها
فهل استرحتم ام استراح الشانی
- ١٠ يتساءلون ابالسلاسل قضیت ام
بالقلب ام هل مت بالسرطان
- ١١ الله یشهد ان موتك بالحجی
والجسد والاقدام والعرفان
- ١٨ المجد والشرف الرفیع صحیفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم
فی هذه الدنیا فانت البانی

- ٢٨ هل قام قبلك في السدائن فاتحا
 فاز بفسير مهند وسننن
- ٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
 ان العلوم دعائم العمران
- ٢٢ علمت شبان المنائن والقري
 كيف الحياة تكون في الشبان
- ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين
 عليا المناصب لم تتح لجبان
- ٢٣ في الفضلاء لراغب متطلع
 وهي المضيق لمؤثر السلوان
- ١٧ ولو ان رسول الله قد جبنوا
 لما ماتوا على دين ولا ايمان
- ٣٠ لفرح في علم البلاد منكسا
 جزع الهلال على فتى الفتيان
- ٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة
 لكنهما يبكي بدموع فان
- ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصدق يلتقيان
- ٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنن
 فكانهما في نعشك القميران
- ٣٣ وكانه نعش الحسين بكر بلا
 يختال بين بكى وبين حسان
- ٣٧ والخلق حولك خاشعون كهدم
 اذ ينصتون لخطبة وبيان
- ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى
 بعد المنابر ام باى لسان
- ٥٩ اخلع على مصر شبابك حاليا
 والبس شباب الحور والولدان

- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة
 في الله والمختار والسلطان
 ١٥ الناس جار في الحياة لفاية
 ومفضل يجرى بغير عنان
 ٢٥ ومنعم لم ياق الا لسنة
 في طيها شجن من الاشجان
 ٢٢ للمرء في العنينا وجم شئونها
 ما شاء من ربح ومن خسران
 ٢٤ والناس غاد في الشقاء ورائح
 يشقى له الرحماء وهو الهاني
 ٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
 نعمى الحياة وبؤسها سسيان

فانظر ايها الفارء الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحرر الاقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه : هل قرأ فى الشعر اشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقى وهل هى نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيفمره كما يفمر السيل الوهاد والنجاد او تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتانى كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بتخاطر فتكون كما اسلفنا بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا فى هذه القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مفزاه وشواهدا كبيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لانها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقى . اللهم الا اذا ظن انها اعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف او ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمود مثلا نكست رؤسها لأجله ؟
ومنه قوله :

ان كان للاخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت الباني

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء اجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضمير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولاي قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح ان يقال في انسان

معلوم أو صبح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهديان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ايفهم انه وحده هو الباني لكل ركن للاخلاق في هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟

وهل لا يصح حينئذ ان يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جوابة الافاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السرى والوزير المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق في كل انسان بل في الناس جميعا بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حى وتابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء ارثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقا اذ كم في مصر من رجل ايظله ما ايظط مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الأمم في جميع العصور فالامر شر من اللغو واقبح من السفه - هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم أن ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد في اواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وخيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

أذن يكون بكم العجاوات خيرا من شعر الأدميين كما قلنا في
فصل مضى .

* * *

ومن الإحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى
لاغتفرت له هذه الثروة على قلة محلها وتفاهة مغزاها . أما الذى
يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل في قلبك آمال وأمانى إلا في
معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعي : يا هذا
الذى يمشى هل أنت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى
فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله
كبار النفوس وبعميدي الهمم ومنها :

فلو أن رسل الله قد جئنا لما

ماتوا على دين ولا إيمان

للصواب في اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لارمة في اصغر
المطالب واقرب الفايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان
لا يقدر على ان يشتري ابرة بغيره ولا يقال في الدلالة على شدة
لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا ان احقر الناس خليق ان لا يكسب قوته القفاز
بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، اما الاستشهاد على قدرها
واستجاشة الناس لها بانها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس
قاطبة ان يقتنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . اما
ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتويدهم

روح الله لا بد ان يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارىء رجلا يخبرك ان المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا اكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم في بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :
فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضييق لؤثر السلوان

والذى يقوله الناس - وشوقى منهم اذا شاء - ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامع المتدفع ، لبعد آماذ همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى بنفسه له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فاما القول بان المطامع تفسح الدنيا والسلوان يجرها فسراى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقى المقلوب .
ومن هذه الاحالات هذه الفهامة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف اما الصبر على نعمها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان يصبر الانسان على النعمة وان تيطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى انعم الله به عليه . والله في خلقه شئون .

ويقول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى

فكانهما فى نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى

ذلك النعش !!

ولا يقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقضاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدرة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

**وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعد سود سيرتها من الدوران**
أى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .
ويقول :

**يا صلب مصر ويا شهيد غرامها
هنا ترى مصر فتم بأمان**
وتقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحبيت بلدك فتم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره .
ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :
**فلو أن بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان**

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في هذا البيت ونحن ننمى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان
أو قال :

فلو ان بالشطين من عزماته

بعض المضاء تحرك الشيطان

الى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت في رثاء مصطفى أو رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟ ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر ابر على عظامك حان

مصر ايها القارىء - ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفا وصعيدها - مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلهذا شاعرها يرى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزانا بهذه الابيات ، لاناتها كل ما فى التصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لاناتها ذات طعم وان كان ردينا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة ان التصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرتاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر نان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الانبارى فوق تشويبه وذاك حين
يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كانك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

وتقول شوهه لان الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به
وانما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة.

وقوله .

او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الأسماع والأجفان

ماخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم
تستشهد بمطلعها :

الناس للموت كخييل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في التراب ولو أنصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتداله وسخفه ان تنظمه «عالم»
الافراح في أغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائلات « احطك في عيني يا سيدي واتكحل عليك » وانه ليقول
كما قلن :

ولو ان لي علم ما في غد خباتك في مقلتي من حذر
وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت في القرآن
منظور فيه الى بيت المعري :

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الآي والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والاعلا
كفن لبست احسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ
وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصور هيكلها
دفنوك بين جوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسدا لم
يدفن الففيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعتت الى الحجاز مشى الاسى
اليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته :
لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضا « ان المنية غاية الابعاد » وكان القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او ناي فان المنايا غاية القرب او قصارى البعاد

فاتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل
على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعمهم بالأعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع اعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن الفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزائة الرجال انظر ايها القارئ الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت الفصيد في رأى عشاق شوقى فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقى قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة - وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائتة او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

اب هذه العوارض يقدر الاحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لرتاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ او لفة لانها حقائق الانسانية باسرها قديمها وحديثها عربيها واعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . وبقيننا ان احدهم لو سمع

فأصحا يعظه في موقف جد - وأي موقف جد أجد من رثاء
 النابغين ؟! - فيناديه يا أخى صن وقتك لان قلبك ينبض كما تنبض
 الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامرهُ الشك في
 عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،
 وما ذاك الا لحسبانهُ ان الهزل جائر في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو
 علم ان الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه ان يضحك منه
 ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان

لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهـر فهو ما يرمز اليه من مجد
 الامة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية .
 وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع
 الاعلام لاجله . فشوقى يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا
 يعنيه ذلك الجوهـر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى
 بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونها دمعا ودمعها دما
 منزوفا . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه
 كلما وصف علما ، فقد قال في وصف الهلال الاحمر :

كان ما احمر منه حول غرته دم البراءة زكى شيب عثمانا
 كان ما ابيض في اثناء حمرة نور الشهيد الذى قدمات ظمانا
 كانه شفق تسمو العيون له قد قلـد الافق ياقوتا ومرجانا
 كانه من دم العشاق مختضب يثير حيث بدا وجدا واشجانا
 كانه من جمال رائع وهدى خدود يوسف لماعف ولهانـا
 كانه وردة حمراء زاهية في الخلد قد فتحت في كفر ضوانا

فهو يمثل راية الامة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت

والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشيبة
او دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض في اثناء حمرة والهلال الاحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه - ومع هذا فاني
لا قسم ان صاحبنا رص هذه (الكائنات) في آياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كان وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من ابطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس
الظنون وهي بريئة عفة !! اذما الذي يخطر على باله الخجل والريبة
في هذا المقام وهو يرثى الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباني .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها !! وليت شعر
شوقي اذا كانت رابتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟
اكان لا يرى للنعش بها اي معنى لانها لا تبكي بدمع احمر ؟؟ .

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .
كومة الرمل كما قلنا في اول المقال . ولقد اتم فيها امتساخ الطبايع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الاغلاط ، وسلا مرقعا
من النشوز والاختباط . وما كان يسعه ان يخرج نفسه خلقا
آخر فيأني بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في
اغراضه ومعانيه وهو ملتبس ، ولكن كان يسعه ان يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعتت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين ودوع الحرمان السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء
للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال
رهبى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكانه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكى وبين حنان
وقد رايناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التى
يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه الابطوطىء من الجرد المحاضير
كان بيض المواضى وهى تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد افام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اتخن بالجراح وانه - لا حيا الله
قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من اربعين ضربة ثم
ديس بالخيل ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم ارسله الى يزيد فى خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن
يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب !!
ولا تقول يختال بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال
الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع
قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فان زعم انه يقصد
موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة
الحسين فالخطا اعظم واقبح لاننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رأيناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم
أزكن من شوقى وأدرى بما ينبغى ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا
يحتلفون بمصره فى ميدان حرب لا يمدفنه فى الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم
ان يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا
يتداركه . وان يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة
يكافأ المكافأة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين
الجهلة والسذج ومن لا يهमे من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع
عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة او يقال
هنا انه يشتغل بكيت وكيت من الفرائب والفنون .

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة
وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضارعة المعرى قبل ان
تكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين
يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيات واشباه
البديهيات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من
هبنقياتة ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من اصعب
الشعر مراما وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس
توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها السنتهم آيات
تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى احدهم بالكلمة العائرة
من عفو خاطره ومعين وجدانه فكانما هى فصل الخطاب ومفرق
الشبهات تستوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيد الاسفار الضافية
الا شرحا وامتدادا وتسمعا فتشع فى ذهنك ضياءها وترتك كبف
يتقابل العمق والبساطة ويألف القدم والجدة : قدم الحقيقة كآبث
ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى
تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك مند
الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين
يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

**تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع**

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه
والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء
هم اللذين يفتنون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه
من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء
تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا
نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن
قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن
العبد :

**لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى لكالطول (1) المرخى وثنياه باليد
وهذا اجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالاجل
وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبها كما قال
البحترى**

**متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه
وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز
تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي الماثور
الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فاعله لا يظلم
او كقول أبى فراس
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فكل شيء كافي**

(1) الطول : حيل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير اكثرها فراخا وام الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت القد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيا في علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما في شئون الامم وراقبت الدول علي سنن شتى من الانظمة والديساتير فما خرجت كلها بزبدة او جزوا لا اصدق ولا اتم من هذه الحكمة التي اهتدى اليها هذا البدوى الناشئ في عصور الجهالة وانك لا تزن امة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصبية والفتنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الاخر حكمة مبتدلة او مغشوشة معتملة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الفزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، واحمق ممر يحمر البئر على شاطئ النهر من يروح ويفدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة في البكور واحترم الأستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأتى السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم - ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها .

لى دولة الشعر دون العصر وائلة

مفاخرى حكى فيها وامثالى !!

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخور ؟؟ انه هو شوقى ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التي استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هي :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بخدال
والعلم في فضله او في معاخره ركن المالك صدر الدولة الخالى
يقبل للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب واجلال

* * *

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونصرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس . حلّى النساء الذهب وحلّى الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته واى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فاكثر فلبتلق الوحي اناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليسعيدوا :

المحسنون هم اللبـاب وسائر الناس النفاية
ان القضااء اذا رمى، ذلك القواعـد من ثبير
والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا
الجد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المـفراح

سر في الهواء ولد بناصية السهى

الموت لا يخفى عليه سـبيل

فلم ار غير حكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى في حياة وابقى بعد صاحبه وثابا
ومن يعدل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخبا
وما الرزق مجتنب حرفة اذ الحظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرىء لأبيـه تابع تال
ومن العقول جداول وجملامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقعها

ليس الشجاع الراى مثل جبانه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج
مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان
يضحكنا ان نسمع الباجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال
واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متثدا انه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشى اول له بتفشر . وان آل لك حد الفنى مثل الفقير اول
له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى اجرة « شيلة » حتى
راى شوقى ان يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان
اول له بتفشر » فآمنا يخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه
من الاجرة الغالية !!

وهل علم احد ان المسافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول
شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والايابا
ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغريا جهلهم سائلا اياهم :
اليس الحق ان العيش فان وان الحى غايته الممات
اليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه ان :
الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

* * *

ومن امثلة حكمته المفسوشعة الممتلة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير
استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - اى
انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلاها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى
اتلفها ولم تنفتت هي حتى تنفتت . مهابة واجلالا . . . وانه لما
اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا اعضوا
عضوا . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربيين والارض والسماء،
المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر
والايما . . تصفيق متواصل . . لابل ضحك تتجاوب به الاصداء،
على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر
وامير الشعراء .

فيا هذا . ان جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لانها
في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهى في
الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاز أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق
بإبطال الحروب إذ كاثت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على
أقرانهم . ولكننا مع هذا نرى المتنبى يقول في أبي شجاع .

من لا تشابهه الأحياء في شيم

أمنى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا
يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحصى
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته؟؟ وعلى انه لا
معنى لأن يقال ان البلى تهب ان يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان
تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل
الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفأر أيضا لا يؤكل
الا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل الا وهى اشلاء بل حتى الأرز لا
يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شىء يزدرد لقمة واحدة فيما
نظن ويظن جميع الاكلين . وصاحبنا برئى شاعرا فيخلط هذا
الخلط فعاقاه الله اى نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه
العظمة التى يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان؟؟ واين من تقدير
شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان؟؟

على ان لشوقى دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة
اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول أ

احذر التخمة ان كنت فهم ان عزرائيل فى خلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل من توقاه اتقى نصف العلال
اتخذ سكناك فى طلق الجواء بين شمس ونبات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور تبخل الشمس عليها بالمرود

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس
من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكسارى توقيف
القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل
البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا ابياتا يجوز ان يكون معناها
مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها
الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تمن للنظام المقلد كما هي
ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المنبى الذى يقتفى شوقى
أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والاقدام قتال

الف هنا الهواء اوقع في الأنف

فس ان الحمام مر المذاق

من اطاق التماس شيء غلابا

واغتصبا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته

وهل تروق دفينسا جودة الكفن

فهذه ابيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع
الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهي قد كان يمكن ان تقع لشوقى
من ذخيرة الاحاديث المشاعة فتسمعها منه كمادته في نقل هذه
الاحاديث منظومة فاذا هي مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة .
الحمام مر المذاق . القوى مفتصب . من هان سهل عليه الهوان .
لا يزين الدليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الامثال العامة فاذا شئت
ان تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس المهمة والطبيعة المشرقة
والسريرة العميقة وانما المصدر الذي تجست منه والشخصية
التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي
صيرتها مقنعة شافية هي بفيتنا من نجوى الالهام وهي التي يرتوى
منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد
الناس كلهم » ثم يتم المعنى لان هذه الشطرة التي لا تزيد البيت
صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بان في البيت حقيقة اقرب الينا
وحجة الصق بنا وثمره اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة
التي تمتحن بموازن الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة
بانها « الف هذا الهواء » فهل ترى اصدق من هذا التعبير !! اليس
المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها
الاعادة تأنفها زمنا ثم تبدلها؟؟ ومثل ذلك يقال في بقية الابيات .

وصفوة القول ان الحكمة المتبدلة ايسر ما يتعاطاه النظامون
لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية
مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها
ولا يقدروته لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته
وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض اقوالهم فخالوها من
قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلاؤها
فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان ارقى ما يرتقون
اليه ان ياتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة وفرق بعيد وبون
شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فاما الاولى فبنت
المران والمكابدة تقرا آلافا من امثالها في كتب اللياقة ونصائح « اباك
وحدار عليك » واما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمره
التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات
الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان
وتنبثق روح الرشد والبيان . الاولى لون من الوان البيئة المكتسبة
والثانية قيس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك في غلبة الصناعة عليه
كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشسباك مختلفات
ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كنز وطار
به كانه لا يصدق انه له او كانه يخشى ان ينازعه لفرحته به وهو
وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

ثم كرر ايضا فى قوله

وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الاخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد اخرى وكل هذا الفرغ بمعنى
يعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك
ما يستحق ان تصفى اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك
صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون
عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر
البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق
التمرينات الاولى .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
فى بائته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشى ولها ذنب
لا تفضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النساقه لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثيرا في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه ان يقال فيها انها سخيقة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت ان يستأثر بدولة الحكم والامثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت في الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شيء . لأن هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدودا في الكدهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الأفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطباع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقى ؟؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقه فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار ، والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لما تحمد سجايه ثم لا تلفيه من القوة على نضيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقد أضحكنا مرة أحد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان فى ذبوع بيت شوقى لدليلا على قيمته . قلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى .

لا تقل اصلى وفصلى ابدا انما اصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا امة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئا للانسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من ابنائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم
بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني
والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد
فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا
بالأمس الا نيرة . .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي
رثاء للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حلفت بالمسطرة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في ال حظائر المنورة
مراقد السلالة الطيبة المطهرة
ما انزلوا الى الشرى بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بحر
قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء ،
ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا
شوقي في مرثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة
ينمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح -
أفرايت احدا قط يقسم لك على صدقه في تعداد منافب مرثيه
كانه يخشى التكذيب أو يتقى ان يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقى ؟؟ واذا اطرده هذا في جميع شعره فلم لا نحسن الظن
ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد في بابه ونتخذ له اسما في اصول
البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر
مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من
مرائيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذي لا يحمد على المكروه
سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون في اختراع شوقى لهذا الباب واطراده
في قصائده جميعا وفي أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم
انها ليست بفلتة نظم او هفوة خاطر ولكنها اصول يربعاها واسوم
يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة
المداجاة فلتة سبقت بها قريحته في مطلع القصيدة فماذا كان يدعو
الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد
وكمل دمع كذب ولوعسة مزورة

الا ان الامر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم
فأشعرنا الريب واتهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكلب
واللوعسة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا
بقنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ، ونرجو أن لا يبارى
فيه . . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا
الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها .
فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير
قواعده وضبط اصوله ورسم نماذجه .

* * *

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد
ولا توقرا أقرب الى المجانة من هدائه في رثائه . وما التبس الهزل
بالاجلال قط التباسهما في تأيينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف
ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها او يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس
بالإيمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا وسأله :
ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة
مزورة ؟؟ أضروري هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لا تفنى
عنها وأنه .

لا ينفع الميت سوى صالحه مدخرة
يقول ذلك لأن الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت
الميت وأغنته عن الصالحه المدخرة ؟؟ فاذا كان التباكى كالبكاء في هذا
المعنى فلم هذا السخف الذى يفض من المبكية والبساكين وليس له
من جدوى ؟؟

ونحن ما كنا لتوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد
أن يلمس ضعف تمييز شوقى عن التفرقة بين حالات النفوس
ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين
منها يرددان في معرض الاستحسان فأحبيننا أن نسمح الرغو عن
محضهما أن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت
الأول وهو .

فأطعم من يولسد يمت الهد جسر المقبرة .
أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من
السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم ممر
وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : اول وثان، وفقد المرء ان يعبر الجسر
وهو اوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة الميت واعلم انما الشيب للمنية جسر
فالذى صنعه شوقى هو انه سرقه وشوّهه كعادته لانه جعل
المرء يخرج من المهد الى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم اطفالا !!

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية
بقيته .

والبيت الثانى او هو بيت القصيد فى رايهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمتدح كل بيت فى القصيدة
خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها .
فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب
الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن
صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان
اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تآلف الانسان من الحياة حتى اذا
ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !!
ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه او ينام على بطنه فىرى
العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه
القصيدة :

وكل نفس فى غد ميتة فمششرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى
امس واول من امس وقبل ذلك بالآلاف السنين وهى تموت اليوم
بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت
منشرة غدا - فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما
جاء بطائل .

واما سائر ابيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها
وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات لنقل شعر شوقى فلا
نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى
فيه اللقد والاعضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ماذا يا أبا عمرو؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبة رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجهه اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينق الحافه عند من ليس يكرتهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق في الراى وشيك أن يوقع صاحبه في الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لقدام بكل ما في دماغه من هوس وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعنه يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعى لأنه لا لبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والبخيرة فلم يدع في طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى اتينا بها الا انتزعه وبسده وفاته ان القديفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعة ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجترأهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه بِنِغَاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حريء أن لا يفتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « أن لا يكون وعظابل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » . فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

الى العلاء فى كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن
وقد كان هذا البيت فى الطبعة الأولى :

الى العلاء فى كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن
ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض من يديه ترايه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الأخلاق خطو الملك وابنوا الخ . الخ .

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٦ » كما سألنا من قبل : « فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة لا » وكما أخذنا عليه « أنه لهتوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

وانكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كتابنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع

العصور أن يتهيا مكاننا وأن لا نبرح نشرق في التمهيد وناخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشيد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيهقي فقال : « وإذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج القراعنة وإنما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيهقي أيضا « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وإنما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فله ما أعلم البيهقيات بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « تهيا » تهيا و « شينا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

ورويتنا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزرا و « فخرا » الخ الخ .

لأن التنوين لأبد أن يسقط في الإنشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا « وإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ورجمه فأى رائحة تفوح منها ؟ » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انها مما لا يدوقه احد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه .

اتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثاته اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العسالى نهانا اوائل علموا الامم الرقيا

لان الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقى عن ان يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!
ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابتسوا

فليس وراءها للعسز ركن

اليس لكم بوادى النيل عدن

... الخ الخ

قال : « ان البيت الثانى منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيهه وادى النيل بعدن والكوثر » .

تترك هو القائل والراوى وذوى وجهه عنهما وصاح وحده !
« كلام مقطوع عما قبله » . وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم
يوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينى الصليب على الهلال
ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة
ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه - او لم يضعهما - وأصر وولى واستكبر
استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم أنه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان
القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل
هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان احدا
تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لفظة ذهنه أنه ضمنها فى
صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخا فى ١١
ديسمبر . . .

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جرفومته هى التى تملأ
نفوسنا تقزاز وعزوا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة
من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصناعات من حرم يرمى
ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده - أرجحهم منها سهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما
اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا تقيضان
من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها
ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ،
وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ؛ وانما البأس
كل البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدناها لهم وأيينا لانفسنا ان ندخلها في كلامنا مع
انها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا
بها لاصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان
نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي ان يسم نفسه
على غلاف رسالته «بنايته كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الى
نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله
جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب
العتيق بالاصنام(١) ثم لا يرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه
ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا
في مصر كان هو يكتب رسالته في اقاصي الصين أو اطراف السويد
ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون
منها والهزيمة ؟

ولما اراد ان يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره
وظن انه فاتنا ابلغ في الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد اكبرهم ان يقرروا اصنام الطبقة التي هم دونها
ليكونوا بذلك اصناما للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم
قد تغفل باطله ونزعت شياطينه وانقرعت رذائله فاذا ذهبت صلح منه التوى
طبعك »

من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة
تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها
بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الأدب . اغثيتم نفوسنا اغشى الله نفوسكم
الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا
السطوط خلقت . وسنفرغ لكم ايها الثقلان فاكثروا من مساوئكم
فانكم بهذه المساوئء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها
حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين :
أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يابون الا ان يعدوا شكرى من
دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء
بسخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب
الجديد وننقى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن
نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان
وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم
لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رءوسا
وكانما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذمنا ينظر ويتدبر . وهم
يطالبوننا ان لا نشيم الخير من احد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق
مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محذور
وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى اسمه !! فياويحنا لقد اسخطنا والله
هذه المعدات الضاغية وهجنا ثعالها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى
« وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته »
كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب
فانا لا ننكر أن شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لبعمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فبجىء دفاعهم اقتل له من تقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخررون منه وبتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونفتبط بما نراد من تملله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يفن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نفعل الى جانب التشجيع ان ننبه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه « انه يطا مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهديب او تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء الامال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل فهو تطرح وتطبيق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيظ المقلدين لى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان راى اليوم لا يتفق مع راى الامس ان صح ان هناك راين ؟ كلا لقد ادينا الواجب له وللادب قديما ولكننا اليوم تؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات ان رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير » وما رمينا احدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على ان كونى مجنوننا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل او دق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسوء الظن بكل شىء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضياء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبورها لتخدعنا بل تظهر قبورها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلقت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء النكر والأمانى) اه .

فهل رأيت أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شىء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخيها للقصد وتحريتها للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبورها بل تظهر قبورها فى حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المحازق فى شىء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا القرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انعاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالها هندسية بديمة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات «
فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في
وصف جنونه « ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه » .

وشكري قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال في ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت في صفري كثر الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس
العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
الفنصص تملأ كل ناحية من نواحي عفتى (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث
أكون . واذكر أنى رأيت مرة عفريتة على سطح منزلنا وكان أسود
الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر
الكثيف » .

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده
كما كان في حدائته .

انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحايين أخاف خوفا شديدا أن يظهر لى ابليس .
فأتلقت كى أثق أنه لم يظهر بعد وفي بعض الاحايين أعتقد وجود
العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صفري لقد سمعت البارحة
القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة
المعدبة (التى تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم أشك في أنها عفاريت من الجن وأصابتى رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الأرواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلاً لمواء الفطط - لا عوائها - إلا بعواء العفاريث وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تآكل الدور قال في ص ٣٤ « أذكر أني رأيت مرة حريقاً هائلاً في جنح من الليل فهيج في قلبي عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناي حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تآكل المنازل فتهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار واليدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهن نور يزيدنا تحوباً وكنت أحس لفح تلك النار في خيالي وذهنى .. هذه هي المناظر التي (التذها) ومن القريب أني يخيل لي أن هذه المناظر وما تبعته من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة سرها . »

ثم تصور شكري واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يذكراني بسوء .. أو أحدا ينظر إلى إلا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وأنى لأسىء ظننى الآن بمن سيقراً هذا الكتاب وما رأيت أحدا ينظر في ئسأبى إلا حسبته رأى فيها شيئاً خفى عنى وما رأيت أحدا ينظر في وجهى إلا حسبته رأى فيه شيئاً قدراً وما رأيت أحدا عابسا إلا حسبته يعبس من أجلى بغضاً أو حقداً وما رأيت أحدا باسم إلا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكاً لم أعرف سببه إلا خجلت بخجلاً شديداً وحسبتنى غرضاً لذلك الضحك (ومن أجل ذلك هيرت أعبس في وجه كل من يبسم في وجهى من الناس إلا من عرفت

سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من
إساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريات كل ما يملأ
ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى
الحلم البلوحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما
أدفع به التهمة فصرت أصبح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى
يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم
رأيت بعد ذلك أنى أساق للسجن والإعدام أنه لحلم يفزع . . أنى
لاذكر أنى اتهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صغرى بسرقة علبه من
الحلوى ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم
(كذا) باطلة . . على أنه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع
ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغى أن تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى أن هذه
التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه أن
يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير أن الناس
منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم أما مجرمون وأما أبرياء وهذا نظر
فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام . . اى الناس لم تخطر
بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات
الشر . . لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع
المراء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء
القاتلة الحرارة والمراء فيها كالصحرا الظمان يليح له سراب الشر
(بضيائه) فريد أن يروى ظمأه وينقع غلته أنا اليوم برىء ولكن
ما يدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى . . . وكنت اشفق على المجرمين واملأ لهم قلبي رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسنت دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت احس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما اردت ان اتنفس احسنت شيئا يسد مجرى النفس وكنت احس صوتا كأنه صوت اعصابى تتقطع فيحكى صوت تقطع اوتار العود وكنت يخيل لى كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وان يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس » .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبفض المتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكيننا وادنيتهما من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغى ان اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة » .

وقد فكر فى الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خيره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدرى مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض ما يصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وان تنجو سليما فوقعت يدي الى جانبى واحسنت ان روى قد سلبت اجل شىء فيها فنظرت الى ما بين قدمى لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسنت كأن عظامى قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة
فجعلت اعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر
الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بلحاظ المقت والكره لانى كنت
احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روى
التي اهيئت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت ان
ارمى نفسى فيه ولكنى هزات بنفسى تلك النفس التي تفر من اللطام
الى الحمام ثم ذهبت الى البيت . . وخطر لى (ان اتابط سكيننا
او مسدسا وان انتقم من ذلك الشقى فاقتله) ولكن الحزم والجبن
وهما سمرى ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت اقرض
اسنانى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات
(الجنون) اهـ

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكها بعقب هذه المرات .
قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت ان يبدأ اللطام بدائه به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر
مغشيا عليه منها ولكنى خفت ان افقا عينه او ان اصيب احد اعضائه
بتلف دائم او ان تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة
وبالعقاب الشديد . . كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما
سدت يدى لالطمه ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا
فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى انه لم يخش ما خشيت من
العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بانفاهشم
وعين سوداء حمراء زرقاء كانها قوس قزح » .

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكاننا اخترعنا شيئا وحسب البعض
ممن بظنوننا تلقى القول على عواهنه ولا نبالى اين وقع من الحقيقة
اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما ادراهم انه هو القائل في ص ٣٩ من الاعترافات :
« انى فى خلوتى بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجعة
والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون
كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء
وحادثتهم لم اجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت
بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغى ان اقول لهم كذا كذا فينطلق
لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن اى مزية فى ان يكون المسرء
(عيبا) فى المجالس فصيحاً فى الخلوات ؟ وهذا سبب من اسباب
انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون
حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الامر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون او
قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧
من الاعترافات :

« لقد كنت فى صفري كثير الحياء وكنت انظر الى جرة اترابى
من الفلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم .
اذكر ان ابي زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن
وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الفلام وصافحنا وحيانا
(بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون
الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الان حاجة الى استقصاء « الجنون » فى شعره
بعد اقراره به وتقريره انه جرع كأسه المرة وانه وصل الى أعماقه
وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك اليمارستانيين
البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون انهم مجانين

وفي اناس كما ابون حتى على انفسهم ولكننا عاشرنا شكري
اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به
نفسه بل لعله آثر السكوت عن اشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه
وملابسيه . ولا يمكن ان يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكري مما
قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن
وان شكري ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة
من المقالات لا يربطها شيء الا ضمح المتكلم وقد نشر شكري اكثرها في
« الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها
في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارىء الاعترافات آيات شعر كثيرة
واردة في اثنائها وفي الهامش انها من شعر المؤلف وصاحب الآيات
هو شكري وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها وقد يعين الجزء
من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق ان يبعث القارىء على الركون الى هذه
الاعترافات وتصديقها. انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في
الاعترافات في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره
« فقد اغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها الخير والشر

دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفا انا اليوم بريء ولكنى ربما كنت في غد مجرما ومن

شعره

ربما شبب بين جنبيك للشر

ضرام ما ان له من فناء

انت في اليوم واسع الجاه غص ال

خير لسن الرخاء رطب الرجاء

خالص الكف من دماء قتيل

ايض الطبع لم يشب برباء

ربما كنت في غد اشعث الطبع

ح لئيم الخصمال جم الشقاء

خاضب الكف من دماء عدو -

طائر الضغن تائر الشجناء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل وأورنا بلدا من
أعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة
الفادرة » وهي قصة امرأة أرادت أن تسمه نفسها هو :

وهي قد أفرغت لي السم في كوبي

وقامت تصر قير بعيسد

ثم غافلتها وأفرغت كوبي

فسوق ماء بكوبها منزور

ثم نلنا من الطعام بلاغا

وشربنا برعا من التصريد

ثم جاء اليوم الجديد فنامت

زوجي الرود نومة القبور

فصل السم فمله في حشاها

ودهاها من السردى بقيود

ومنها قصيدة عنواتها « أم أسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها
يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسي أنه هو أيضا
جبان حتى في موطن « اللطام »

أيها الخائن الجبان خشيت الـ

موت والموت حادث مقسود

ان اما تعزى لها قتلت في

قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »
قد قبلتني قبلة مرة
كانها من حملة العسرب
تنهش جياها لم يكن نهزة
لشاحذ الاثياب والمضب
لولا وميض الزاي يقتلاني
يعيثنى من سفه المفضب (!!)
جلتها بالسيف امحو به ال
نوب بذب رائع معجب

وتأمل في هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف أنه
يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل
وفيهما يعذر المجرم

اطيلوا حياة الجارمين فانها
حياة اذا سسد المطامع عاقر
لقد اخلفتهم بلغة العيش برها
زمانا وحابات الحياة غوادن
فبئس حياة المرء والفقير عاكف
عليه واسباب الحياة جرائر
هنا لك انى للفقير لعاذل
وانى له مما يعانيه عاذر

كان كل من يجرم يكون باعته الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك
أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين الناس وبا معزى
ونادوك انى فاتك النفس جسام

لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فهما يغفر الزلات إلا الأعظم
وقوله :

رحت أسعى كهصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح
او كذى الجرم حين طال به السجن
يفضل الطريق عند السراح
وقوله :

كان هموم المرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا
وفى واعترافاته انه يحلم بأنه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على العظم أسياف نعمة
فاحلام نومي كالجحيم عذاب
كم هد من عزم صليب عذابها
وشيب وراذ النوب فشابوا
ومنها :

وغيرنى عما عهدت جراترى
فليس الى الحال القديم اياي
فلا تحسبن الشر يمحي بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب
يوافق كل الناس بالفكر شرهم
وقد عابنى انى جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفسه

وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياع
وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر في العيش منهلا

لكن ورد الجارمين سرايا

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مائما

وان بقلبي من جفائك (جنة)

فان رام يوما قتلكم ما تائما

فاسقى جنوني من دمائك جرعة

وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك في
ان الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكري قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر
السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالفنا
اللهم لا! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع
أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها
الاشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

((ابراهيم عبد القادر المازني))

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مطابع مؤسسة دار الشعب - للطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ١٠١ - ٢٥٥١٨١٨ - ٢٥٥١٨١٨٠ - ٢٥٤٢٨٠٠

To: www.al-mostafa.com